المجلة الجزائرية للدراسات التاريخية والقانونية | المجلد 7 / العـــدد: 2 (2022)، ص 53- 86

تحليل الخطاب السياسي اليوسفي : خطاب جامع الزيتونة نموذجا

Analysis of Yusufian political discourse: The speech of Al-Zaytoonah Mosque as a model

د. حسن النجار*
كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية (تونس)
Najjarhassen71@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/08/05 تاريخ القبول: 2022/08/31 تاريخ النشر: 2022/09/06

ملخص: لقد حاولنا في هذه الورقة البحثية الكشف عن خصوصيّات و مميّزات الخطاب السياسي اليوسفي بالإعتماد على خطاب جامع الزيتونة كنموذج. و لم نلتزم في هذا التحليل بمنهجيّة محددة من مناهج تحليل الخطاب المعاصرة، و إنّما حاولنا قدر الإمكان الإستفادة منها لأجل تعميق فهمنا لنصّ الخطاب مع الإلتزام بمنهج المؤرخ في تحليل الوثائق التاريخية.

كما كانت غاياتنا الأساسية من تحليل خطاب الزعيم صالح بن يوسف هي التعرّف على المعارضة اليوسفية و ما تحمله من شعارات و استراتيجيات.

و قد توصّلنا في آخر المطاف إلى استنتاج أن المعارضة اليوسفية كانت متميّزة بمبادئها و بدائلها وتوجهاتها التي تتناقض مع التوجهات و الخيارات البورقيبية، و أنّ خطابها السياسي كان يعتمد على استراتيجية مخصوصة هدفها الأساسي هو مقاومة الإتفاقيات الممضاة مع فرنسا.

كلمات مفتاحية: الخطاب السياسي.، المعارضة اليوسفية.، الإتفاقيات.

Abstract: *In this research paper, we have tried to reveal the peculiarities and characteristics of Yusufian political discourse by relying on the discourse of Al-Zaytoonah Mosque as a model. In this analysis, we did not adhere to a specific methodology of contemporary discourse analysis, but we tried as much as possible to benefit from it in order to deepen our understanding of the text of the discourse while adhering to the historian's approach in analyzing historical documents.*

Our main objectives in analyzing the speech of the leader Saleh ben Youssef were to identify the Yusufian opposition and its slogans and strategies.

In the end, we came to the conclusion that the Yusufian opposition was distinguished by its principles, alternatives, and orientations that contradict the Bourguibian orientations and choices, and that its political discourse was based on a specific strategy whose main objective was to resist the agreements signed with France.

Keywords: *Political Discourse. Yusufian opposition. Agreements.*

* المؤلف المرسل: حسن النجار

مقدمة

لقد أفرزت فترة الصراع العلني بين الزعيمين صالح بن يوسف و الحبيب بورقيبة كمّا هائلا من الخطب السياسية. و هي الفترة المتراوحة بين13 سبتمبر 1955 و 31 جانفي 1956 ؛ أي الفترة الفاصلة بين تاريخ عودة صالح بن يوسف إلى أرض الوطن و تاريخ مغادرته لها تجنبا للبطش البورقيبي.

و لا يمكننا منهجيا في هذه الورقة البحثية الاهتمام بجميع خطب صالح بن يوسف و لقاءاته الصحفية، و قد اخترنا خطاب الزيتونة الذي ألقاه صالح بن يوسف يوم 7 أكتوبر 1955 بجامع الزيتونة بعد عودته إلى أرض الوطن. و قد اعتمدنا الخطاب الذي نشرته جريدة الصباح يوم 8 أكتوبر 1955.

و يعدّ خطاب الزيتونة من أهم خطب صالح بن يوسف، و ذلك لأنه كان سببا مباشرا في اتّخاذ قرار تجريده من الأمانة العامة و رفته من الحزب[1]. و كذلك لأنّ خطاب الزيتونة هو الخطاب المؤسس للحركة اليوسفية، فقد أبرز فيه صالح بن يوسف الخطوط الكبرى و الملامح العامة لهذه المعارضة الفتيّة.

تتكون هذه الورقة البحثية من محورين رئيسيين؛ الأول نظري و الثاني تطبيقي. و سوف يتبين لنا في المحور النظري بأنه لا يمكن للمؤرخ منهجيا الالتزام بأي نظرية محددة في تحليل الخطاب رغم الأهمية الكبرى التي تشكلها هذه المقاربات النظرية في فهم نص الخطاب. أمّا في المحور التطبيقي فسوف نحاول تحليل خطاب الزيتونة مستعينين و مستأنيسين بأبرز نظريات تحليل الخطاب السياسي دون العدول عن منهجية المؤرّخ في شرح و نقد الوثيقة التاريخية.

1. الخطاب(Le discours)

عادة ما يُذكر مصطلح الخطاب مقرونا بالمجال الذي ينتمي إليه مثل الخطاب الديني ،الخطاب الإعلامي، الخطاب السياسي... و لذلك يمكن أن نجد تعريفات كثيرة للخطاب و ذلك لتعدد و تنوع المجالات التي ينتمي إليها هذا المصطلح. فماهو مفهوم الخطاب ؟

1.2 مفهوم الخطاب:

1.2.1 الدلالات الإشتقاقية و المعجمية:

الخطاب هو مصدر من فعل خاطَب، فنقول خاطب يخاطب خِطابا و مخاطبَة. و خاطب على وزن فاعل، و صيغة فاعل تدلّ على المبادأة و المشاركة[2].

و الخطاب حسب معجم العين هو " *مراجعة الكلام*" [3]. و كذلك حسب لسان العرب فإنّ " *الخطاب و المخاطبة : مراجعة الكلام*" . و يضيف ابن منظور صاحب هذا المعجم قائلا: " *و قد خاطبه بالكلام مخاطبة و خطابا، و هما يتخاطبان...و المخاطبة مفاعلة من الخطاب و المشاورة*"[4]. و يمكن أن نفهم من هذه الشروح أنّ المقصود بالخطاب هو عملية تواصل عبر التلفّظ بين مرسل و متلق.

و قد ورد لفظ الخطاب في القرآن الكريم في الآيتين التاليتين:

- " رب السماوات و الأرض لا يملكون منه خطابا" (سورة النبا، الآية 37)

– " و شددنا ملكه و آتيناه الحكمة و فصل الخطاب" (سورة ص، الآية 20).

و يمكن أن نفهم من هذه الآيات أنّ الخطاب هو ليس فقط مراجعة للكلام، و إنّما كذلك هو الكلام المنتظم و المُحْكم، حيث قرن الله في الآية الأخيرة بين الحكمة و فصل الخطاب. و "فصل الخطاب " عند الرازي هو " *القدرة على التعبير عن كل ما يخطر بالبال، و يحضر في الخيال، بحيث لا يختلط شيء بشيء، و بحيث ينفصل كل مقام عن مقام* ."[5]

و قد عرّف الآمدي الخطاب قائلا: " اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيء لفهمه"[6] و يتفق معه الرازي بأن جعل " الفائدة في الخطاب إفهام المخاطب"[7] و يشترط هنا إذن استعداد المتلقي الذهني و النفسي لتلقي الرسالة الموجهة من طرف المرسل.

1.2.2 الدلالات الإصطلاحية:

أول من استعمل مصطلح الخطاب في الدراسات اللسانية الحديثة هو المفكر الأمريكي زيليغ هاريس Zillig Harris، إذ وسّع التحليل اللساني إلى ماهو أكبر من الجملة.[8] و قد شهد مصطلح " خطاب" إنتشارا واسعا بعد صعود التيارات التداولية[9] و بداية أفول البنيويّة. و حسب "معجم تحليل الخطاب"، يمثل الخطاب وحدة لسانية متكونة من جمل متعاقبة.[10] و حسب دومينيك مانغونو Dominique Maingueneau في كتابه " المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب"، فإن " *مصطلح خطاب، من حيث معناه العام المتداول في تحليل الخطابات، يحيل على نوع من التناول للغة، أكثر ممّا يحيل على حقل بحثي محدد، فاللغة في الخطاب لا تعد بنية اعتباطية بل نشاطا لأفراد مندرجين في سياقات معينة، و الخطاب بهذا المعنى لا يحتمل صيغة الجمع: يقال (الخطاب و مجال الخطاب)الخ، و بما أنه يفترض تمفصل اللغة مع معايير غير لغوية، فإن الخطاب لا يمكن أن يكون موضوع تناول لساني صرف*."[11] و هذا التعريف يعني توسّع مفهوم مصطلح الخطاب الذي لم يعد مقتصرا على المجال اللّساني. مما يعني أن التحليل البنيوي للخطاب غير كاف و لا يؤدي إلى فهم المعاني الحقيقية لنص الخطاب، أي المعاني التي أرادها و قصدها المرسل.

و يعرف ميشال فوكو الخطاب قائلا: " *نطلق مصطلح خطاب على مجموع الملفوظات التي تنتمي إلى تشكيلة خطابية واحدة*."[12] كأن نقول الخطاب السياسي و الخطاب الماركسي و الخطاب الديني، إلخ. و يربط مشال فوكو هنا مفهوم الخطاب بالمجال الذي يحتويه. أمّا إميل بنفينيستÉmile Benveniste فيحدد الخطاب بمعناه الأكثر اتساعا باعتباره كل تلفظ يفترض متكلما و مستمعا و عند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما.[13] و الخطاب قريب من التلفّظ عند أ. بنفينيست فهو " *اللسان باعتبار أن الإنسان المتكلم يضطلع به و في ظروف ذاتية متبادلة، هي التي تجعل التواصل اللساني ممكنا* ."[14]

كما يعرف أ.هـ . غرديناز الخطاب بأنّه " *الإستعمال بين الناس لعلامات صوتية مركبة لتبليغ رغباتهم أو آرائهم في الأشياء* " [15] و الخطاب بكونه ما يتجاوز الجملة، هو المفهوم الغالب في الدراسات اللسانية الحديثة، رغم أنّ الجملة بمفردها تعدّ خطابا مستقلا، و ذلك ما نلمسه خاصّة في الخطاب الإشهاري.

و حسب الأستاذ عبد الهادي الشهري " *يستوي الخطاب بشقيه المكتوب و الشفوي، كما يستوي المرسل إليه الحاضر أو المستحضَر، فلا يقتصر توجيهه إلى المرسل إليه الحاضر عيانا، بل يتجاوز توجيهه إلى المرسل إليه الحاضر في الذهن.*"[16] و يمكننا إدراك مفهوم الخطاب بجلاء عند مقارنته بمفهوم النص، فما الفرق بين الخطاب و النص؟

1.2.3 الفرق بين الخطاب و النص:

يؤكد الأستاذ محمد مصابيح بأنّ " *كل ملفوظ يندرج تحت نظام اللغة وقوانينها فهو نص، وإذا ما خرج ليندرج تحت السياقات الاجتماعية سمي خطابا*"[17] ، فالخطاب إذن يضطلع بمهمة توصيل رسالة للمتلقي سواء أكان حاضرا أو مستحضرا في الذهن.

تتعدّد وجهات النظر في هذا الشأن؛ " فبعض الدارسين يرى أنه لا يوجد فرق بين النصّ والخطاب؛ وذلك لأن كليهما في علاقة وطيدة بحقل الدر اسات اللغوية، و هناك من يرى أن النصّ غير الخطاب؛ فالخطاب يتشكل من مجموعة نصوص وممارسات اجتماعيّة، و إن تحليل النصّ هو جزء من تحليل الخطاب في البحوث الاجتماعيّة ولا بد من التمييز بين التعامل مع اللغة على مستوى النص والتعامل معها على مستوى الخطاب، فدراسة النص تستلزم دراسة كل الوحدات التبليغية المتماسكة من حيث التركيب البنائي، أما الخطاب فهو العملية المعقدة من التفاعل اللغوي.[18] و علم النص[19] اليوم علم يكشف العلاقات الخفية وراء تماسك النص و ترابطه و تضامنه حول بعضه وفق منظومة محددة من المعايير النصية التي حددها روبرت دي بيوغراند Robert De Beaugrande و لفجانج دريسلر Wolfgang Dressler ، و هي سبعة معايير يلزم توفرها ليصبح النص نصا: السبك، الحبك، القصدية، المقبولية، الإعلامية، و المقامية، و التناص.[20]

قال لويس غسبان Louis Guespin " *إن إلقاء نظرة على نص من حيث هيكلته في " اللسان" يجعل منه ملفوظا؛ و الدراسة اللسانية لظروف إنتاج هذا النص تجعل منه خطابا.*"[21] فالنص إذن هو مجمل القوالب الشكلية من قواعد نحوية و صرفية و صوتية دون النظر إلى ما يحيط به من ظروف أو يتضمنه من مقاصد. في حين يحيل الخطاب على عناصر السياق الخارجية في إنتاجه و تشكيله اللغوي، و كذلك في تأويله مما يفترض معرفة شروط انتاجه و ظروفه. [22] و هذا المفهوم أو هذه المقاربة من شأنها أن تعين المؤرخ في تحليله لنص الوثيقة أو لما يسمى بالوثيقة التاريخية و ربطها بسياقها الخارجي و ظروف نشأتها.

وحسب نظريات التحليل اللغويّ فإن" الخطاب يفترض وجود سامع يتلقّى هذا الخطاب، بينما يتوجّه النصّ إلى متلقٍ غائب يتلقّاه عن طريق القراءة، أي أن الخطاب نشاط تواصلي يتأسس –أولاً وقبل كل شيء – على اللغة المنطوقة، أما النص فهو مدوّنة مكتوبة، وكما قال روبير اسكاربيت Robert Escarpit فإن اللغة الشفويّة تنتج خطابات بينما الكتابة تنتج نصوصاً، و كل منهما يُحدّد بمرجعية القنوات التي يستعملها.[23] و الخطاب عند ريكور هو التحقّق الفعليّ للسان فهو أعم و أشمل من النص لأن فيه عناصر أخرى إضافية[24].

ما يمكننا استنتاجه هنا، هو أن الخطاب أعم و أشمل من النص لأنه يرتبط بالسياق الخارجي و بظروف انتاجه، و في علاقة متينة بالمتلقي الذي يوجه إليه الخطاب من أجل التأثير عليه. أما النص فهو جزء من الخطاب، و دراسته لا تستوجب الخروج عن إطاره البنيوي و اللغوي.

1.2.4 الخطاب السياسي:

الخطبة السياسية SPEECH POLITICAL " هي كلام يلقيه السياسي مشافهة أمام الجماهير مباشرة أو من خلال وسيط مرئي أو مسموع ، و يتناول فيه أمور الحكم[25]. أمّا مصطلح (الخطاب) أصبح شائع الاستخدام بوصفه ترجمة لمصطلح DISCOURSE و هو مصطلح أعم من مصطلح الخطبة، لأنّ الخطاب (le discours) يشمل العلاقات و الروابط التي توجد بين مجموعة كبيرة من النصوص التي تنسب إلى شخص أو مؤسسة أو توجه ما[26]. و نحن عند دراستنا للخطاب اليوسفي، إنّما نتوجّه إلى مجموعة الخطب و الحوارات و النصوص التي أنتجها الزعيم صالح بن يوسف خلال مسيرته السياسية.

و نستخدم أيضا مصطلح البلاغة السياسية التي تشير أوّلا إلى العلم الذي يدرس العلاقة بين البلاغة و السياسة ، و ثانيا إلى النصوص و الكلام الذي ينتجه السياسيون، و يستهلكه الجمهور و توظف فيه أساليب و ظواهر بلاغية لتحقيق الإقناع و التأثير بما يخدم مصالح المتكلم... و قد رأى أفلاطون أن هذه البلاغة تفتقد إلى الأخلاق لأنها تتلاعب بالجماهير [27] . و من أبرز مهام المحلل للخطاب السياسي هو كشف هذا الخداع الذي يمارسه السياسي في خطابه عبر اللغة. والخطب السياسية تهدف دوما إلى صنع وعي الجماهير بالمستقبل. و غالبا ما يتم صياغة هذا المستقبل بطريقة وردية حالمة بهدف تسكين الجماهير ، و دفعها إلى قبول السياسات الحالية و السياسيين الحاليين في مقابل وعد بمستقبل أفضل[28].

يختلف تحليل الخطاب الأدبي عن الخطاب السياسي، حيث يعبّر الخطاب السياسي عن مقصدية موجهة إلى متلقّ معين للتأثير فيه و إقناعه بمضمون الخطاب ويتضمن المضمون أفكارا سياسيّة ...ولهذا نجد المادّة اللفظية قليلة في حين يتسع المعنى الدلالي لتلك الألفاظ. فالمرسل يعتني بالفكرة التي هي مقصده أكثر من عنايته بالألفاظ، فالفكرة في الخطاب السياسي هي الأساس[29]

إذن يمكن القول أن الخطاب السياسي لا يقصد به الخطبة السياسية، رغم أنها ركن أساسي من أركان الخطاب السياسي، و يمكن أن يتمظهر الخطاب السياسي أيضا في بيانات و مؤلفات أو في حوارات صحفية..و الغاية من الخطاب السياسي اقناع المستمع بأفكار سياسية محددة، و هو يعتمد عادة أسلوب المراوغة و المخادعة و التلاعب بالألفاظ، مما يجدر بالمحلل السياسي الكشف عن الغايات الحقيقية للخطاب السياسي و استخراج ما تخفيه السطور في هذا الخطاب. و عادة ما يتغاضى المؤرخون عن المخفي من الخطاب السياسي لعدم تمكنهم من مهارة و آليات تحليل الخطاب، مما يحد من فهمهم للوثيقة التاريخية التي تكون في شكل خطاب سياسي.

2. تحليل الخطاب

يعرف اللساني الأمريكي زيليغ هاريس Zellig Harris تحليل الخطاب قائلا: "*هو البحث عن التتابعات داخل النص*" ثمّ يتساءل قائلا: فماذا يحدث داخل النص ؟ ألا يمكننا أن نعرف ماذا يقول النص بالتحديد؟ و هل يمكن أن نعرف كيف يقوله؟[30]. إن هذا التعريف لتحليل الخطاب لا يخرج عن الإطار البنيوي و الشّكلي للنص. فهل هو كاف لتعريف تحليل الخطاب؟

يحدد فان دايك موضوع التحليل النقدي للخطاب بأنه دراسة الكيفية التي يقوم بها النص و الكلام بتقنين و انتاج و مقاومة اعتداءات السلطة الاجتماعية و هيمنتها و لا مساواتها، و أن المحلل الناقد للخطاب يسعى إلى فهم اللامساواة الاجتماعية و الكشف عنها تمهيدا لمقاومتها، و من ثم فإن التحليل النقدي للخطاب له توجه عام هدفه توعية البشر للتأثيرات المتبادلة بين اللغة و البنى الاجتماعية، تلك التأثيرات التي لا يعيها البشر غالبا.[31]

و يرى محمد الشاوش أن " *تأويل الخطاب لا يتسنى إلا بوضعه في سياقه التواصلي زمانا و مكانا و مشاركين فيه و مقاما.* [32] و من بين أهم الخصائص التي يقوم عليها منظور تحليل الخطاب التي بسطها محمد الشاوش في كتابه " أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية"، يمكن أن نذكر:

- استعارة بعض الأشكال من اللسانيات الاجتماعية و اللسانيات النفسية و اللسانيات الإحصائية و الذكاء الاصطناعي و علم النفس المعرفي.
- اختزال وظائف اللغة في وظيفتين أساسيتين؛ أولها وظيفة نقل المعلومات و الثانية الوظيفة التفاعلية.
- اعتبار المتكلم/الكاتب و المستمع/القارئ محور عملية التواصل و أساسها.

و " *الفرق بين عمل اللساني و عمل محلل الخطاب، هو أن اللغة في نظر اللساني نتاج، و هي في نظر محلل الخطاب عملية و إجراء. كما أن محلل الخطاب لا يهدف إلى وضع قواعد صارمة و إنما إلى تتبع مظهر خطابي معيّن للوقوف على درجة تكراره من أجل صياغة اطراده، فهدف محلل الخطاب الأساسي هو الوصول إلى اطرادات و ليس إلى قواعد معيارية، باعتبار أن معطياته خاضعة للسياق الفيزيائي و الإجتماعي و أغراض المتكلمين و استجابة المستمعين.* "

إذن، فإن محلل الخطاب يسعى في عمله إلى الكشف عن الإطرادات في معطياته و أن يصنفها. و إن الإطرادات التي يرمي محلل الخطاب إلى الكشف عنها ليس مجالها النص باعتباره نتيجة لعملية الخطاب أي النص بمفرداته و مركباته و جمله و إنما مجالها العملية التي بمقتضاها تعمل اللغة باعتماد جميع أطراف التواصل. فليس ما يسمى بالنص في نظرية تحليل الخطاب سوى بينة و شاهد على محاولة منتج ما إيصال رسالة إلى متلق."[33]

هذه النظرة تحيلنا إلى المنهج التداولي pragmatique في تحليل الخطاب، و التداولية هي دراسة علاقة العلامات بمستعمليها و مؤوّليها. و هي تهتم بدراسة المعنى التواصلي، متجاوزة بذلك المستوى الشكلي(التركيبي و الدلالي) في التحليل[34].

و قد برزت عدة مشكلات في التحليلات اللغوية الشكلية، و لذلك، يرى جيوفري ليتش Geoffrey Leech أن في المنهج التداولي حلا لبعض هذه المشكلات، من وجهة نظر كل من المرسل و المرسل إليه؛ فالمرسل يبحث عن أفضل طريقة لينتج خطابا يؤثر به في المرسل إليه، كما أن المرسل إليه يبحث عن أفضل كيفية للوصول إلى مقاصد المرسل كما يريدها عند انتاج خطابه لحظة التلفظ، و هذه الإجراءات لا تتبلور عبر منظومة خوارزمية تجريدية كما هو الحال في النحو ، بل عبر تقدير ذهني عام و محتمل وفقا لعناصر السياق. [35]

و التداولية في مفهومها العام هي: " *دراسة الإتصال اللغوي في السياق*"، أي دراسة أثر السياق في بنية الخطاب.[36]

3. المؤرّخ و تحليل الخطاب السياسي

يتعامل المؤرخ عادة مع الخطاب السياسي بوصفه وثيقة تاريخية لا غير، و هدفه الأساسي من دراستها يتمثل في الكشف عن الأحداث التاريخية و تحليل أسباب وقوعها. لقد آن الأوان لينفتح المؤرخ على مناهج تحليل الخطاب لكي يستفيد منها و يوظّفها إن لزم الأمر، فالخطبة السياسية – مثل أي نص آخر– تمثل وجهة نظر في الأحداث، و ليست *الأحداث ذاتها. و هي ليست أكثر مصداقية من أي نص آخر و لا يجب أن يكون لها – في هذا السياق – أية أفضلية على أي نصوص أخرى. بل الأدعى أن تزيد درجة الشك فيها، و تزيد درجة الحيطة في التعامل معها عن بقية النصوص.*"[37]

إن اختيار منهج مناسب من أجل تحليل الخطاب السياسي باعتباره وثيقة تاريخية لا يخلو من إشكاليات عويصة، و ذلك نظرا إلى أنّ تعامل المؤرخ مع النص يختلف عن تعامل اللساني أو محلل الخطاب. فالمؤرّخ عادة يهتم بالحدث التاريخي كموضوع للبحث و التفسير و التحليل. و إنّ تعامله مع الخطاب السياسي بوصفه وثيقة تاريخية إنما يهدف إلى الكشف عن الحدث و تحليل أسبابه و مآلاته، باعتبار أن الحدث التاريخي هو الذي يولّد نتائج حسب تعبير هنري بيران Henri Pirenne [38] و التاريخ حسب شارل سنيوبوس Charles (Seignobos)سلسلة بديهية و يقينية من الحوادث، كل حادثة سابقة تحتم حدوث اللاحقة[39].

و لكن من واجب المؤرخ أن يوجّه اهتمامه نحو الإستراتيجية التي يعتمدها السياسي من أجل التأثير على مستمعيه و اقناعهم بأفكاره، و بذلك يمكن أن يوظف بعض مناهج تحليل الخطاب و أبرزها المنهج التداولي. و إن التحليل اللغوي و التركيبي الصرف للخطاب لن يجدي نفعا المؤرّخ الذي يهتم في بحثه أساسا على التسلسل المنطقي للأحدلث التاريخية. و نحن نميل مع الطرح الذي يرى أن الخطاب كلام ينجز في ظرفيّة اجتماعية أو سياسية ما من ظروف التواصل.

مهمتنا إذن، في تحليل الخطاب السياسي اليوسفي لن تقتصر فقط على الكشف عن الأحداث، و هي المهمة الأساسية التي يقوم بها المؤرّخ، و إنما أيضا في الكشف عن استراتيجيات هذا الخطاب الذي به تتم السيطرة على قلوب المستمعين و عقولهم و " تنويمهم كلاميا" حسب تعبير ميشال فوكو.

و إننا سوف نركز في تحليلنا لهذا الخطاب، على عناصره الأساسية المتمثّلة في المرسل و الرسالة والمتلقي، و سنتجاوز الحديث عن الجملة وتركيبها إلى محاولة الكشف عن الزوايا السيكولوجيّة والأيدولوجيّة و التاريخية للنصّ، وربط المضامين بالسياق التاريخي وسطوة اللحظة.

سوف لن نتعامل إذن مع نص الخطاب لا بوصفه بنية مجردة، بل سنتعامل معه من خلال المقام والمضمون و السياق التّاريخي. و "*في البحث التداولي لا بدّ من الوقوف على عناصرالخطاب؛ النصّ والقائل والمتلقّي، من أجل الوصول إلى قراءة أعمق، فلا يمكن فهم الكلام فقط تبعاً لتصورات لغوية عامة ، فأحيانا يكون النصّ واضحاً وسهلاً في دلالاته ومعانيه، إلا أنّه يكون غنيّا بأبعاد التلقّي التي تخرجه من حدود ألفاظه لتجعل منه حلقة ربط واتصال ضمن الحيّز النفسيّ والاجتماعيّ وعلاقات الجدل بين الناصّ والمتلقّي*" [40]

4. تحليل خطاب الزيتونة

من النّادر أن يكون المؤرّخ مختصّا في تحليل الخطاب، و من الصعب جدا أن يجمع بين اختصاصين أي علم التاريخ و علم اللّسانيات المتشعّب و الدّقيق، فمناهج تحليل الخطاب التي يمكن أن يوظفها المؤرخ ماهي إلا مجرد وسائل لإعانته على فهم أعمق و أشمل لنص الوثيقة، و إنّ غايته الأساسية –كما أشرنا إلى ذلك– من وراء تحليل الوثيقة التاريخية تتمثل في الكشف عن أسباب و مآلات الحدث التاريخي, و إنّ هدفه من وراء مخالطته للنص التاريخي يكمن أساسا في السعي لبناء منطقي لأحداث الماضي بعد تحليل و تمحيص و تدقيق للنصوص و الوثائق بمختلف أنواعها.

و لذلك فإننا سوف لن نتقيد في تحليلنا لخطاب الزعيم صالح بن يوسف بأي منهج من مناهج تحليل الخطاب، و إنما سوف نتعامل مع هذا الخطاب على أنه وثيقة تاريخية لا تختلف عن بقية الوثائق و النصوص التي يعتمد عليها المؤرخ في بحوثه.

و لا شكّ بأنّ مناهج تحليل الخطاب سوف تساعدنا على الكشف عن خصائص الخطاب السياسي اليوسفي التي تجعله مميّزا. كما سوف نسعى من خلال تحليلنا لهذا الخطاب السياسي إلى:

- التعرّف على طبيعة المرحلة السياسية في فترة انتاج الخطاب.
- التعرّف على اليوسفية من خلال خطاب جامع الزيتونة.
- الكشف عن بعض أسباب الصراع اليوسفي البورقيبي.
- التعرّف على الإستراتيجية المعتمدة من طرف صالح بن يوسف من أجل اقناع الجماهير.

رغم أن عمل المؤرّخ يستند بالأساس على الوثيقة تاريخية، فإنّي سوف أحاول في هذا المحور تحليل مضامين خطاب جامع الزيتونة دون عزلها عن سياقها التاريخي " الخارجي" و ذلك من أجل فهم أعمق و أشمل للنصّ، كما سوف أحاول قدر المستطاع توظيف بعض مناهج تحليل الخطاب التي تغني و تدعم عمل المؤرخ.

4.1 عناصر الخطاب

يتكون الخطاب من ثلاث عناصر أساسية و هي الباث و المتلقّي و الرسالة، أما بالنسبة لقناة التواصل لحظة إلقاء الخطاب فلا وجود لها لكون الخطاب قد ألقي بشكل مباشر على مجموع الحضور في جامع الزيتونة. و تظهر قناة التواصل بعد نشر الخطاب و المتمثلة أساسا في الصحف ليتسع بذلك مجال التلقي و يشمل عموم التونسيين. و قد اعتمدنا على نسخة جريدة الصباح التي نشرت الخطاب على دفعتين يومي 8 و 9 أكتوبر 1955.

4.1.1 المرسل

المرسل أو الخطيب هنا، هو الزعيم صالح بن يوسف الأمين العام للحزب الحر الدستوري التونسي الجديد. و هو من أبرز الزعماء المرافقين لرئيس الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد الزعيم الحبيب بورقيبة في جل المحطات النضالية للحزب. و في فترات غياب الحبيب بورقيبة كان صالح بن يوسف هو الحاكم بأمره و المتحكم الفعلي في الحزب.

و يمتلك الزعيم صالح بن يوسف قدرة كبيرة على الخطابة و امكانيات هائلة على التعبئة، قد اكتسبها من نشاطه الحزبي في ظل الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد منذ عودته من فرنسا سنة 1934، و خاصة في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية خلال تنقلاته بين مختلف مناطق الإيالة التونسية من أجل إحياء و إعادة بناء الحزب الذي كان يمر بظروف صعبة منذ حوادث 9 أفريل 1938.

لقد كان صالح بن يوسف من المعارضين الشرسين للإتفاقيات نظرا لعدم التزام المفاوضين التونسيين بشروطه الخمسة[41] التي حددها من أجل مواصلة المفاوضات مع فرنسا، و نظرا أيضا لاقصائه من هذه المفاوضات. و قد رأى الحبيب بورقيبة في هذه الشروط الخمسة مغالاة في النزعة الوطنية. و قد كشف هذا الموقف تباينا في سياستي كلّ من الزّعيمين، و ذلك لأنّ الإلتزام بهذه الشروط لا يتماشى مع سياسة المراحل المعتمدة من طرف الحبيب بورقيبة. و هي سياسة يعتبرها صالح بن يوسف ممعنة في التنازل عن الحقوق الوطنية.

و لذلك فقد تمّ إقصاء صالح بن يوسف من هذه المفاوضات سواء من طرف فرنسا التي لم تمكّنه من تأشيرة الدخول لمتابعة المفاوضات عن قرب، أو من طرف وفد التّفاوض التّونسي الذي لم يكن يعلمه بحقيقة ما يدور في الكواليس رغم زيارات المنجي سليم المتكررة له في جنيف. و بذلك أصبح صالح بن يوسف معارضا شرسا لاتفاقيات الإستقلال الداخلي[42]. و قد كان الجمهور الحاضر في جامع الزيتونة في ترقب لمعرفة حقيقة موقف صالح بن يوسف من الإتفاقيات الممضاة مع الجانب الفرنسي.

4.1.2 المتلقي

يحدد صالح بن يوسف في مستهل هذا الخطاب المتلقي و المتمثل في الجمهور الحاضر بجامع الزيتونة بشكل خاص و الشعب التونسي بصفة عامة، حيث يقول: " *أتوجه إلكيم جميعا، وإلى الشعب التونسي*". إذن فالخطاب ليس فقط موجه للحاضرين في المسجد بل هو موجه لجميع التونسيين، لأن صالح بن يوسف مدرك بأن خطابه سوف ينشر في وسائل الإعلام المكتوبة .

المتلقي لا يتمثل فقط في أنصار الزعيم صالح بن يوسف، بل إن الجانب المقابل و المنافسون لصالح بن يوسف، و أعني بذلك الحبيب بورقيبة و أنصاره سوف يتخذون موقفا حاسما ضد الزعيم صالح بن يوسف إثر سماع هذا الخطاب ، و ذلك لما تضمنته الرسالة (الخطاب) من نقد لاذع لوفد التفاوض البورقيبي الذي أمضى على الإتفاقيات مع الحكومة الفرنسية.

4.1.3 الرسالة

الرسالة جاءت في شكل خطاب سياسي أُلقي شفويا في جامع الزيتونة. و إن اختيار مكان إلقاء الخطاب لم يكن اعتباطيا لما يمثله هذا المعلم الديني من رمزية.

و قد دعا صالح بن يوسف في هذا الخطاب مناصريه إلى مقاومة اتفاقيات الإستقلال الداخلي مؤكدا على ضرورة مواصلة النضال من أجل وحدة الصف ووحدة المغرب العربي و مشددا على انتماء تونس إلى مجالها المغاربي و العربي و إلى مجموعة باندونغ المدافع على تحرر الشعوب المستعمرة، و ملمحا في هذا الخطاب إلى مبادئ عامة لليوسفية مثل الهوية، الحرية و الإستقلال، الوحدة...

4.2 دلالة الزمان و المكان

افتتح صالح بن يوسف خطابه بالإشارة إلى الزمان " اللحظة الرهيبة" . فمن الواضح أنّ صالح بن يوسف كان مدركا للتداعيات الخطيرة التي ستنجر عن الخطاب، و كان مدركا أيضا لأهمية الفترة التاريخية التي تمر بها البلاد، فبفعل هذه " اللحظة الرهيبة" تأتي أهمية خطاب الزيتونة.

و نلاحظ أن أهمية الزمان قد ارتبطت بعظمة المكان " المعهد الإسلامي العظيم"، الذي يتمتع بأهمية تاريخية و دينية كبيرة . و المكان يدل على المجد و العظمة المتأتيان من العروبة و الإسلام و هما من المكونات الأساسية للهوية التونسية. كما أنّ الزيتونة لم يكن مكان عبادة فقط و إنما كان معهدا للعلم و المعرفة. و هو يرمز أيضا لانتصارات الفاتحين الذين أسسوا هذا الجامع من أجل نشر الإسلام في منطقة شمال إفريقيا.

4.3 السياق التاريخي

يندرج خطاب جامع الزيتونة ضمن سياق تاريخي يتميز بالصراع و الخلافات بين رموز الحركة الوطنية التونسية بسبب إمضاء اتفاقيات الاستقلال الداخلي في 3 جوان 1955، و ذلك بعد مفاوضات وصفت بالصعبة بين الجانبين التونسي و الفرنسي.

و قد أجبرت المقاومة التونسية الباسلة المستعمر الفرنسي على الجلوس إلى طاولة المفاوضات مع الجانب التونسي و ذلك إثر خطاب رئيس الحكومة الفرنسي منداس فرانس في تونس يوم 31 جويلية 1954 و الذي أعلن فيه عن استعداد فرنسا للتفاوض مع الجانب التونسي حول الحكم الذاتي.

و إنّ مجيئ منداس فرانس إلى تونس كان أساسا بفعل نشاط المقاومة المسلّحة التونسية و استماتتها، و لم يكن بفعل الضغوط السياسية للحزب الحر الدستوري التونسي الجديد الذي كان يعيش حالة مريبة من الانقسام بين مختلف قياداته.

و قد كانت مسألة الفلاّقة تُقلق فرنسا و قد قال منداس فرانس في هذا الشّأن:

" يجب أن نستغلّ الموقف الناشئ عن شغب الفلاّقة للضغط على المفاوضين التونسيين. ولكن علينا أن لا نكون واهمين فليس لديهم أيّ وسيلة لإنهاء هذا الاضطراب. من الواضح أن جزءًا كبيرًا من الفلاّقة ليسوا تحت سيطرتهم." [43] و هو ما يدل على أهمية الدور الغير مباشر الذي قام به المقاومون التونسيون منذ انطلاق الثورة المسلحة في 18 جانفي 1952 من أجل اجبار فرنسا على الحوار مع التونسيين.

و قد جاء الخطاب أيضا بعد حدثين هامين تمثلا في عودة الزعيمين الحبيب بورقيبة و صالح بن يوسف إلى أرض الوطن. لقد عاد الأول يوم 1 جوان 1955، أي قبل الإمضاء الرسمي للاتفاقيات. و قد حظي الحبيب بورقيبة باستقبال جماهيري كبير. أما صالح بن يوسف فقد عاد من الشرق يوم 13 سبتمبر و قد تم استقباله كذلك استقبالا جماهيريا يليق بمكانته، و كان الحبيب بورقيبة من أول المستقبلين له رغم بروز علامات الشقاق بين الزعيمين بفعل تصريحات صالح بن يوسف الرافضة للاتفاقيات لوسائل الإعلام قبل عودته إلى أرض الوطن. و قد أشار الحبيب بورقيبة عند استقباله لصالح بن يوسف إلى أنّ الاتفاقيات التونسية الفرنسية هي خطوة إلى الأمام و قد عارضه صالح بن يوسف معتبرا أن الاتفاقيات هي خطوة إلى الوراء :" *الاتفاقيات التي فرضت على الشعب فرضا، و هي التي لازلت مصرّا على رأيي بأنّها خطوة إلى الوراء تقيّد تطوّر هذا الشّعب.*"[44] و تلك هي نقطة الخلاف الرئيسية بين البورقيبية و اليوسفية.

4.4 مضامين الخطاب

4.4.1 رسائل متبادلة مع الشرق

لقد استعمل صالح بن يوسف في فاتحة الخطاب التركيب الإسمي المؤكّد بـ " إنّ" [45] التي تنفي الشك و تمنح اليقين للمستمع، و التعبير الإسمي يدلّ على الثبات و الاستقرار، و هذه التراكيب تعبر عن يقين المرسل، و تعطي المتلقّي إحساسا بالثقة: "*إني في هاته اللحظة الرهيبة*..".

كما استعمل مركبات نعتية و عطفية للتأكيد على عظمة المكان و على أهمّية الزمان (زمن الخطاب). و قد استعمل أوصافا على وزن فعيل (اللحظة الرهيبة، المعهد الإسلامي العظيم)، التي تدلّ على المبالغة. و قد بالغ صالح بن يوسف أيضا في وصف جزء من المكان و هو محراب جامع الزيتونة باستعمال خمسة مصادر مرتبطة بواو العطف (تاريخا وعظمة، ومجدا وعروبة و إسلاما)[46]، و المحراب في المسجد "هو فجوة في

جدار قبلة المسجد يقف فيها الإمام في الصلاة، و هو كذلك مقام الإمام، فنقول صعد الخطيب المحراب"[47]. و لذلك فإن وصف صالح بن يوسف للمحراب لم يكن اعتباطيا، فهو يريد أن يحيط خطابه السياسي بهالة من القداسة الدينية مستوحاة من رمزية المكان معتبرا نفسه إماما للمسلمين بما أنه قد اعتلى سدّة المنبر .

إن هذا الإستعمال للمصادر و الأوصاف انتهى بتوجيه تحية تليق بالحاضرين و بجميع الشعب التونسي، و قد وصفها صالح بن يوسف بتحية الإسلام الخالدة مستعملا في ذلك مركبا إضافيا من أجل تخصيص و تحديد هذه التحية و مركبا نعتيا من أجل وصفها بالخلود. و هذه التحية مصدرها القلب " *من أعماق قلبي*" ، و القلب في الدين الإسلامي هو مصدر الإيمان.

و انطلاقا من هذه الديباجة و التحية سوف يقوم صالح بن يوسف بتبليغ رسالة الشرق الأقصى و الأدنى إلى الشعب التونسي و المتمثلة أساسا في الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية للبلاد. أما الرسالة التي بلغها صالح بن يوسف للشرق نيابة عن الشعب فتتمثل في رسالة الأخوة العربية و الإسلامية، وهي إشارة مبطنة إلى أهمية عامل انتماء تونس للشرق. و هو ما يتناقض مع خيار الحبيب بورقيبة التغريبي. ففي حوار أجرته جريدة العمل مع الحبيب بورقيبة بعد إمضاء الاتفاقيات يقول فيه: " *إنّ البلاد التونسية الحرّة بفضل موقعها الجغرافي و تاريخها و اتّصالاتها المستمرّة بجميع شعوب البحر الأبيض المتوسّط هي بالطّبع متضامنة مع العالم العربي الإسلامي من حيث ثقافتها و روحها و لكن البلاد التونسية متّجهة نحو الغرب التي هي جزء منه...*" [48]

و الرسالة التي بلّغها صالح بن يوسف للشعوب الشرقية صادرة عن الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد الذي يمثله، و هي رسالة الوطن المفدى حسب تعبيره. و نلاحظ أن صالح بن يوسف في المقطع الأخير من هذا الجزء واصل في استعمال المركبات الإضافية التي تفيد التخصيص و التحديد و المركبات النعتية من أجل وصف الوطن و الحزب . و كان وصف الحزب على وزن فعيل الذي يفيد المبالغة (حزبنا العتيد) .

و الرسالة مصطلح ينتمي لحقل دلالي ديني باعتبار أن جميع الرسل كانوا مبلغين لرسالة ما، و بذلك يضفي صالح بن يوسف على نفسه و على خطابه مكانة عالية و قدسية مستوحاة من عظمة و رمزية المكان. فيلعب إذن صالح بن يوسف في هذا المقطع دور المبلغ و الأمين على رسالة الحزب و الوطن، و في ذلك تأكيد لصفته كأمين عام للحزب الحر الدستوري التونسي الجديد. و لكن سوف يتسبب هذا الخطاب في حرمانه من هذه الصفة بقرار من الديوان السياسي للحزب.

4.4.2الهجرة

يعتبر صالح بن يوسف نفسه المتكلم باسم الشعب التونسي، إذ يقول: " وكنت في تلك الفترات التي أقضيها بينهم صوتا مسموعا للشعب التونسي الأبي"، و يقول أيضا: " أنا أصرخ في الدنيا باسمه، وأنادي على لسانه بالحرية والاستقلال ". و هو ما ينسجم مع تعريف الفراهيدي للزعامة في معجم العين، و هو أوّل معجم عربي،

ألّفه عالم اللغة الخليل ابن أحمد الفراهيدي (718– 786م)، و الذي يفيد بأنّ زعيم القوم هو سيّدهم و رأسهم الّذي يتكلّم عنهم[49]. و بما أن صالح بن يوسف يعتبر نفسه المتكلم باسم الوطن (كي أرفع لهم صوت تونس عاليا) و الشعب (صوتا مسموعا للشعب التونسي)، فهو يعتبر نفسه بذلك هو الزعيم الأوّل و الأوحد للشعب.، و الدليل على ذلك إطنابه في استعمال الضمير المتكلم المفرد و ذلك تأكيدا لزعامته فيقول مثلا: " كنت أنا أصرخ في الدنيا باسمه، وأنادي على لسانه بالحرية والاستقلال، وأشنع تشنيعا بالاستعمار الفرنسي وبفرنسا". و قد أكد هنا من خلال استعماله للضمير المنفصل " أنا" على الدور المحوري لذاته في التكلم باسم الشعب نافيا بشكل مبطّن و غير صريح دور بقية زعماء و خاصة رئيس الحزب الزعيم الحبيب بورقيبة في تمثيل الشعب و التكلم باسمه.

و قد تحدث صالح بن يوسف في هذا الجزء من الخطاب عن دوافع هجرته إلى الشرق في فترة الثورة المسلحة التونسية التي انطلقت في 18 جانفي 1952. و كأنه يبرر غيابه عن أرض الوطن في هذه المرحلة العصيبة من تاريخ البلاد. و دوافع الهجرة حسب صالح بن يوسف تتلخص في النقاط الثلاث التالية:

- رفع صوت تونس عاليا
- البحث عن الدعم الخارجي
- تحريض الشرق على الاستعمار

لقد استعمل صالح بن يوسف حروف النصب " كي" و "حتى" التي تفيد التعليل من أجل توضيح الأسباب التي جعلته يهاجر إلى الشرق. و لم يشر صالح بن يوسف إلى السبب الحقيقي و المباشر الذي دعاه للهجرة، و المتمثل أساسا في فشل حكومة شنيق الثانية التي شغل فيها منصب وزيرا للعدل[50]. و فشل هذه الحكومة التفاوضية كان على اثر قدوم المقيم العام جون دي هوتكلوك Jean de Hauteclocque، الذي سعى إلى الفتك بالقيادات الوطنية و بسببه قد اشتعل لهيب المقاومة التونسية المسلحة ضد المستعمر. و قد اضطر صالح بن يوسف لعدم العودة إلى أرض الوطن خشية التنكيل و الاعتقال.

إنّ العمل الذي قام به صالح بن يوسف من أجل التعريف بالقضية التونسية هو من صميم مهام و واجبات الأمين العام للحزب، سيما و أن الحبيب بورقيبة كان في المنفى. و الحقيقة التي لا غبار عليها أن الأعمال الفدائية التي قام بها التونسيون و استبسالهم في مواجهة المستعمر و التي لقيت تعاطفا عالميا و قد تحدثت عنها الصحف في كل أنحاء العالم، هي التي أجبرت رئيس الحكومة الفرنسية الاشتراكي منداس فرانس للمجيء إلى تونس وإلقاء خطابه التاريخي يوم 31 جويلية 1954 و اعترافه بحق الشعب التونسي في الحكم الذاتي، و هو ما سوف يؤكده صالح بن يوسف في هذا الخطاب.

إن حديث الزعيم صالح بن يوسف في خطابه عن تحريض الشرق على الاستعمار ينسجم مع طبيعة المرحلة التي يعيشها العالم بعد الحرب العالمية الثانية و ما شهدته من صراع بين الشرق و الغرب في ظل الحرب الباردة.[51] و كذلك يمكن أن نضع هذه المسألة (تحريض الشرق) ضمن خانة الصراع على الزعامة

و محاولة كسب صفة المحاور الجدير بين الحبيب بورقيبة الموالي للغرب و صالح بن يوسف الموالي للشرق. فقد كان صالح بن يوسف يبحث منذ انطلاق المفاوضات التونسية الفرنسية عن قوى خارجية داعمة لتوجهاته و قادرة على احداث التوازن بين الطرفين المتفاوضين. كذلك، فإن محاولة الزعيم صالح بن يوسف تحريض الشرق على الاستعمار لا يخرج في حقيقته عن نطاق الصراع بين اليوسفية المحافظة و المتمسكة بالهوية العربية الإسلامية و البورقيبية المتحررة و المنفتحة على عالم ما وراء البحر.

4.4.3المفاوضات

أكد الزعيم صالح بن يوسف أن اعتراف فرنسا بالإستقلال ناتج أساسا عن الكفاح الثوري في الداخل: "*مجموعة من الثوار أثرت تأثيرا كبيرا على المستعمر، إلى أن اضطرته الظروف والتجانس والثبات في الكفاح التونسي العظيم إلى الاعتراف بالحق لذويه، فرضخت فرنسا، واعترفت بحق تونس في الاستقلال*"؛ و بذلك فإن صالح بن يوسف يعظّم من دور العمل في الداخل في فترة المقاومة المسلحة التي انطلقت في 18 جانفي 1952 و يقلل من شأن العمل الديبلوماسي الخارجي و يعتبره عملا متواضعا و بسيطا: "*العمل الداخلي العظيم، والعمل المتواضع البسيط في الخارج*". و هنا يستعمل وصفين متضادين للإعلاء من شأن المقاومة، مما يؤكد على رغبة صالح بن يوسف لنشاط المقاومة من أجل محاربة الاتفاقيات.

الاستقلال الداخلي بالنسبة لصالح بن يوسف ما هو إلا مرحلة أو خطوة نحو الاستقلال التام و قد قال في هذا الشأن: " *لا نقبل هذا الاستقلال الداخلي إلا إذا كان مرحلة حاسمة وقصيرة جدا نحو هدفنا الأسمى وهو استقلالنا التام*" .

و قد صرّح صالح بن يوسف في مذكّرته إلى الصّحافة ووكالات الأنباء في جنيف يوم 31 ديسمبر 1954 أنّ الشّعب التونسي " *لن يقبل باستقلال داخليّ صوريّ من شأنه أن يغلق في وجهه باب الاستقلال التّام للبلاد التّونسية.*"[52] .

لقد أشار الزعيم صالح بن يوسف بأن هذه المفاوضات قد " تعثرت وتباطأت وطالت وتمططت "و أن سبب تعثر المفاوضات يتمثل في عدم توفر حسن النية و الصدق للطرف الفرنسي " *مفاوض لم تكن له حسن النية ولا الصدق في ما قاله وفي ما أعلن عنه أمام العالم أجمع*". و قد ظهر ذلك خاصة إثر سقوط حكومة منداس فرانس Mendes France و صعود حكومة إدغار فور Edgar Faure في فيفري 1955[53].

إنّ مرحلة المفاوضات شهدت إقصاء غير مباشر لصالح بن يوسف رغم تواجده الشّبه دائم بجنيف، خاصّة بعد سقوط حكومة منداس فرانس ، ممّا سيزيد في شكوك اليوسفيين حول نوايا الجانب الفرنسي. و الأكيد أنّ صالح بن يوسف قد قام بمراجعة ذاتية لاستراتيجيّة الكفاح المعتمدة بعد سقوط حكومة منداس فرانس و تغيّر مسار المفاوضات و عدم التزام وفد التّفاوض بالشّروط الدّنيا التي حدّدها، ممّا جعله يتبنّى المواقف المبدئيّة

التي ما فتئ يدعو إليها الزّعيم محمّد عبد الكريم الخطّابي منذ تأسيس لجنة تحرير المغرب العربي. و ذلك ما يفسر معارضته الشرسة للاتفاقيات و التي لمسناها في هذا الخطاب.

في واقع لأمر، إنّ المعارضة اليوسفيّة العلنيّة قد ظهرت مؤشّراتها منذ هذه الفترة، أي منذ سقوط حكومة منداس فرانس حين بدأ التّناقض بين التيّار البورقيبي و التيّار اليوسفي يلوح في الأفق فيما يخصّ محتوى الاتفاقيات.

و إن نتائج هذه المفاوضات أدت في آخر المطاف إلى اتفاقيات تقر بالوضع الاستعماري و تعترف بحقوق لا بمصالح المعمّرين، و ذلك حسب صالح بن يوسف ناتج عن عقلية التشبث بالاستعمار لدى المفاوضين التونسيين.

4.4.4مؤتمر باندونج

انعقد مؤتمر باندونج بين 18 و 24 أفريل 1955 في إندونيسيا، بمشاركة 29 دولة إفريقية و آسيوية، مثّلت النّواة الأولى لحركة عدم الانحياز. و قد شارك صالح بن يوسف في هذا المؤتمر كرئيس للوفود الممثّلة لشمال إفريقيا. و قد تعرّض صالح بن يوسف في خطبه مرارا لهذا المؤتمر، نظرا لأنّه يشكّل ورقة ضغط دولية هامّة تجاه فرنسا حتّى ترضخ لمطالب حركات التحرّر الوطني.

و قد عبّر محمود المسعدي منذ أكتوبر 1952عن ذلك في رسالة للباهي الأدغم، مشيرا إلى بروز القوة "الأفرو–آسيوية" :

" هناك رغبة واضحة هنا لرؤية هذه الكتلة " العربية الآسيوية" و هي تتفكّك، والتي إذا استمرت، ستخلق في العالم نوعًا من القوة الثالثة التي سيضطر الغربيون إلى قراءة حسابا لها... لو نجح هذا الإنجاز فسيخلق في العالم قوة ليبرالية ثالثة، تقدمية ومسالمة، وسيط بين "القوتين العظميين" ... أصبح الهدف رقم 1 لخصومنا الآن: هو منع ولادة هذا التحالف بين الشعوب المستعمرة و التي كانت مستعمرة في أفريقيا وآسيا...[54].

صالح بن يوسف قد يئس من مسألة كسب صفة المحاور الجدير لدى فرنسا، و أصبح يعتمد على مساندة الزّعيم جمال عبد النّاصر و الدول العربية و لآسيوية التي حضرت مؤتمر باندونج من أجل الضّغط على فرنسا، و قد قال صالح بن يوسف في شأن هذا المؤتمر: " *مؤتمر باندونج له خطّة واضحة إزاء قضايا شمال إفريقيا فهو يطالب بصراحة الاعتراف لشمال إفريقيا باستقلاله و سيحاسب فرنسا .*"

و سوف تعتمد هذه الدّول – حسب صالح بن يوسف– وسائل ضغط غير الرّشاشات و الدبّابات و إنّما هي وسائل ضغط سياسية و اقتصاديّة أشدّ تأثيرا من الحرب:" *و لقائل أن يقول ماذا عساها أن تصنع هاته الشّعوب و هل ستعيننا بالدبابات و الرشّاشات و قواتهم لإخراج قوات فرنسا، أقول لكم ليس ذلك ما تريده شعوب باندونج و إنّما وسائل أخرى تضغط بها على فرنسا و هي أوقع من الحرب...*" و يقصد هنا صالح بن يوسف وسائل الضغط الإقتصادية.

لقد أطنب صالح بن يوسف في خطاب جامع الزّيتونة في الإشارة إلى أهميّة مؤتمر باندونج في دعم حركات التحرر الوطني لدول المغرب العربي. و اعتبره قوة دولية قادرة على الضغط على فرنسا من أجل الاستجابة للمطالب الوطنية: " *نحن من جهة أخرى مرتبطون ارتباطا طبيعيا بالمجموعة العربية الإسلامية، و هي المجموعة العالمية القوية. بما انضم إليها من شعوب إفريقيا و آسيا، و أصبحت تمثل ثلثي العالم، و سيكون لها المستقبل و توازن بين قوى العالم*". فصالح بن يوسف يعتبر أن هذه الدول المجتمعة في دول باندونج و التي تمثل ثلثي العالم تمثّل القوة الثالثة التي يمكنها أن تنافس المعسكرين التابعين للولايات المتحدة و الاتحاد السوفياتي، و يمكن بذلك المراهنة عليها. و قد راهن عليها صالح بن يوسف و راهن على جمال عبد الناصر، و لكن اتضح في آخر المطاف أن الحبيب بورقيبة كان له فهما أعمقا لواقع التوازنات العالمية في تلك الفترة، و لذلك فإنه قد راهن على الغرب الرأسمالي.. بما فيهم فرنسا، و على ضوء ذلك قد تم اختياره كمحاور جدير.

4.4.5 الإتفاقيات

يعتبر صالح بن يوسف أن هذه الاتفاقيات ماهي إلا عرقلة في سبيل استقلال البلاد، و هي بالنسبة له شكل من أشكال الاستقلال الداخلي المزيفق، رغم أن زمن توقيعها كان في ظروف عالمية مساعدة على نيل الشعوب لاستقلالها (تصفية الاستعمار). و هو ما أسماه صالح بن يوسف بجو "الانقلاب العالمي". و المقصود بهذه العبارة هو أوضاع الحرب الباردة، و ما أسفرت عنه من ضغوط أمريكية و سوفياتية على الدول الاستعمارية من أجل منح الاستقلال للدول المولّى عليها.

و قد تزامن توقيع الاتفاقيات مع نشاط المقاومة في الجزائر و المغرب، و لذلك فقد وصف صالح بن يوسف هذا الجو بالقتامة و الثقل نظرا لعدم التنسيق في استراتيجيات الكفاح الوطني بين تونس و بقية دول المغرب العربي، أي بمعنى آخر؛ تونس تتفاوض مع فرنسا و نشاط المقاومة متواصل في المغرب و الجزائر. و لذلك فإن صالح بن يوسف يؤكد بأن المفاوضين التونسيين قد تنازلوا تنازلات مريعة من ناحية الوطن و الذاتية و التاريخ و بذلك فهو يدعو إلى التحلل من الاتفاقيات و مقاومتها و عدم الاستبشار بها: " *يجب على الشّعب حتى لا يخون عقيدته الوطنية و لا يخذل إخوانه في الجزائر و المغرب و حتى لا يخذل هذه المجموعة – شعوب باندونج– أن لا يقر هاته الاتفاقيات* ". و هو ما يعني إيمان صالح بن يوسف بمبدأ تنسيق الكفاح الوطني بين شعوب المغرب العربي. و قد عبّر المؤرّخ عميرة عليّة الصغيّر في مقدّمة كتابه " اليوسفيّون و تحرّر المغرب العربي" عن هذا المبدأ قائلا:

" *نعتقد أنّ اليوسفية كمواقف و نضال سياسي قامت على مرجعيّة فكريّة سبقتها، لكن اندرجت هي فيها و هي أنّ قضيّة التحرّر من الاستعمار في تونس و الجزائر و المغرب الأقصى هي قضيّة يترابط نضال شعوبها ترابطا عضويّا و جدليّا فلا تحرّر لشعب إلاّ بتحرّر الآخر و لا دوام للحرّية ما دام شعب آخر يرزح تحت الاستعمار و لذلك كانت المعارضة اليوسفيّة وفية لهذا الإدراك و سارت عليه مكافحة في سبيل التّحرير الشّامل*

للمغرب العربي."[55]. و يعتبر صالح بن يوسف أنّ فرنسا نكثت عهدها، كما يعتبر أنّ المفاوضين التونسيين ربما قد تورطوا أو اغتروا أو أخطوا . فماهي الأسباب التي جعلت صالح بن يوسف يعتقد أنّ الاتفاقيات لا تلزم الشعب التونسي و لا الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد؟

4.4.5.1 الاتفاقيات: إقرار بالوضع الاستعماري

يعتبر صالح بن يوسف الاتفاقيات التّونسية الفرنسية، هي " *اتّفاقيات أقرّت بصفة صريحة واضحة لا تقبل الشكّ الوضع الاستعماري الموجود الذي قاومه الشّعب التّونسي منذ انتصاب الحماية على هذه البلاد..."* فهذه الاتفاقيات لا تعترف بسيادة البلاد على الأمن و الاقتصاد و القضاء.

و الإقرار بالوضع الاستعماري، يعني القبول طواعيّة بمعاهدة باردو و اتفاقية المرسى، بل إنّ طبيعة العلاقات بين تونس و فرنسا بعد أن كانت توصف "*في معاهدة باردو ثمّ في* اتفاقية *المرسى بأنها علائق الودّ و حسن الجوار صارت توصف في مقدّمة تلك الاتفاقية بأنّها علاقات المجموعة التّونسية الفرنسية*"[56]

و لذلك، فإنّ صالح بن يوسف يرى أنّ الإمضاء على الاتفاقيات هو دخول في الوحدة الفرنسية. و قال صالح بن يوسف في تصريح له بالقاهرة:

"*إنّه لم يحملني على محاربة الإتّفاقيات مجرّد احتمال سوء تطبيقها في المستقبل، بل إنّ الاتفاقيات نفسها هي التي أريد أن أشهر بخطورتها حيث أنّها قد أفسدت مستقبل شعبنا بصفة نهائيّة.*"[57] المقصود بمستقبل البلاد هنا هو الاستقلال التام، و قد اعتبرها صالح بن يوسف عرقلة في سبيل استقلال البلاد.

4.4.5.2 الاتفاقيات :عرقلة في سبيل استقلال البلاد

اعتبر صالح بن يوسف أنّ اتفاقيات الاستقلال الداخلي هي خطوة إلى الوراء، و هي رؤية معاكسة لموقف الحبيب بورقيبة الذي اعتبرها خطوة إلى الأمام .

بما أنّ الاتفاقيات تقرّ بالوضع الاستعماري و بما جاء في معاهدة باردو و اتّفاقية المرسى، فهي تعتبر بهذا المنطق عرقلة في سبيل استقلال البلاد، بل اعتبر صالح بن يوسف أنّ هذه الاتفاقيات أشدّ وطئا من معاهدة باردوا لأنّها لا تعترف بسيادة البلاد على الأمن و الاقتصاد و القضاء .

و البرلمان لا يمكن أن يشرّع في هذه المجالات الثلاث لأن الاتفاقيات قد قامت بضبطها بإحكام:" *برلمان لا يمكن أن يشرّع في القضاء و الاقتصاد و الأمن لأنّ كل تلك الجوانب من الحياة التّونسية تضبطها ضبطا محكما اتّفاقيات تسمّى الاتفاقيات التّونسية الفرنسية. و لا يمكن للمشرّع التّونسي و لا الحكومة التونسية أن يعملا عملا مفيدا خارج نطاق الاتفاقيات لأنّها جاءت فأقرّت الوضع الذي كنا نتألّم منه و كنّا نقاومه.*" و في هذه الحالة فإن سيادة البلاد تصبح منقوصة، بل هي سيادة شكلية و خيالية حسب صالح بن يوسف و لا وجود لها على أرض الواقع: " *الحكومة التونسية تحكم في نطاق كاد يكون معدوما و ليس لها من مستلزمات السيادة إلا الخيال..*" و هي بذلك حسب صالح بن يوسف "*لا تؤثر على الشعب التونسي الذي كافح وضحى، وأ راق دماءه أنهارا لا لينتفع بمظاهر السيادة.*" و يستنتج صالح بن يوسف بأن الشعب التونسي لم يتحصل

على شيء بعد امضاء الاتفاقيات: " *إنه لا يصح أن نغالط أنفسنا و نقول أننا تحصلنا على شيء*.". و أن السيادة المتحصل عليها هي سيادة زائفة غايتها " *إضفاء الصبغة المشروعة على النظام الاستعماري الذي طالما كافحه الشعب*".

و يرى محمّد المنصف المنستيري في جريدة الاستقلال النّاطقة باسم الحزب الحر الدّستوري القديم أنّ الاتفاقيات " *قد كانت في صالح فرنسا و الفرنسيين القاطنين بالبلاد التّونسية و هذا ما دلّ عليه بعد ذلكم التصويت بأغلبيّة كبيرة جدّا عليها من طرف البرلمان الفرنسي*."[58] علما و أنّ مواقف الحزب الحرّ الدّستوري القديم الذي ينتمي إليه محمد المنصف المنستيري كانت منسجمة مع مواقف التيّار اليوسفي. فهل أدخلت الاتفاقيات فعلا تونس في مشروع الاتحاد الفرنسي؟

4.4.5.3 الاتفاقيات أدخلت تونس في مشروع الاتحاد الفرنسي

لقد كانت فرنسا تخشى من ضياع مستعمراتها بعد الحرب العالميّة الثّانية، و فقدان مجالها الحيوي الذي أصبح مهدّدا من قبل القوّتين العالميّتين المتنافستين؛ أي الولايات المتّحدة الأمريكيّة و الاتحاد السّوفياتي، التي كانت تدفع و تشجّع الحركات الوطنيّة من أجل نيل استقلالها.

إنّ الاتحاد الفرنسي هو عبارة عن "حيلة قانونية اعتمدتها فرنسا من أجل الحفاظ على مستعمراتها بعد إفلاس المنظومة الاستعمارية التقليدية. و قد تمّ التّعريف بالاتحاد الفرنسي في ديباجة دستور27 أكتوبر 1946كالتّالي:

" *تشكل فرنسا مع شعوب ما وراء البحار اتحادا يقوم على أساس المساواة في الحقوق والواجبات دون تمييز بسبب العرق أو الدين. الاتحاد الفرنسي يتكون من الأمم والشعوب التي تقوم بتجميع أو تنسيق مواردها وجهودها من أجل تنمية حضاراتها وزيادة رفاهيتها وضمان أمنها*"[59].

و قد تم رفض المشروع من قبل الأمين باي سنة 1947: " *لقد أصبحنا داخلين بحكم القانون في الوحدة الفرنسية التي قاومها الشعب، ورفضها جلالة الملك المعظم سنة. 1947* ". و رغم ذلك فإن صالح بن يوسف قد اعتبر أن الإتفاقيات كانت أشد وطأة من الدستور الفرنسي: " *فالدستور الفرنسي يقتضي أقل مما تلزمنا به الاتفاققيات*". و لذلك فإن الإتفاقيات بالنسبة لصالح بن يوسف هي خطوة إلى الوراء.

لقد رفض الحزب الحر الدستوري الجديد، من حيث المبدأ الدخول في مشروع الإتحاد الفرنسي، رغم سعي فرنسا بطرق شتّى لإنجاح هذا المشروع. و قد قال أحمد بن صالح في رسالة بعثها للباهي الأدغم:

" *في السيزل، قام بعض الأعضاء المؤثرين بتمرير فكرة الاتحاد الفرنسي، لكنهم مازالوا مترددين ... لكن هذه الفكرة كانت ولاتزال مرفوضة باستمرار* "[60] و ذلك يعني أنّ هذه الفكرة مرفوضة من طرف التّونسيّين.

قال بيار جوليي Pierre July وزير الشّؤون التّونسية و المغربيّة :" أنّ *الأمر الموجود الآن الّذي نحن في صدد احداثه هو تكوين اتّحاد فرنسي يكون ناتجا عن الإتّفاقيّات الّتي بصدد المناقشة*[61] و هو في الحقيقة

تصريح خطير يكشف النوايا الحقيقية للحكومة الفرنسية. و لذلك اعتبر صالح بن يوسف في هذا الخطاب أنّ تونس أصبحت داخلة في الإتّحاد الفرنسي بعد إمضاء الإتّفاقيّات: " *و هنا أقول صراحة و على مسؤوليّتي إنّ تونس أصبحت بموجب الإتفاقية العامة داخلة في الوحدة الفرنسية.*"

و في حوار مع مبعوث الدّايلي تايمز أوضح صالح بن يوسف موقفه من مشروع الوحدة الفرنسيّة قائلا:" *ارتباطنا بالوحدة الفرنسية لا أقبله بحال و إنّما أقبل بشيء بتشابه في نتائجه مع ما عندكم و ما تعبّرون عليه "بالكومنولث"،أمم حرّة مستقلّة استقلالا تامّا تتقارب مصالحها و تتعاون في الإقتصاد و الثّقافة.*"[62]

إذن، فإن صالح بن يوسف يعتبر الإتّفاقيات دخولا في مشروع الوحدة الفرنسية الذي أقرّه دستور الجمهورية الخامسة و الذي رفضه الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد و القديم. و بذلك أصبحت الاتفاقيات وسيلة جهنمية– حسب صالح بن يوسف– لتقسيم الشعب التونسي لاختلاف و تباين المواقف تجاه ما جاءت به.

4.4.5.4 الإتّفاقيّات: وسيلة جهنّمية لتقسيم الشّعب التونسي

اعتبر صالح بن يوسف أنّ الاتفاقيات هي " *وسيلة جهنّمية لتقسيم الشعب بعضه عن بعض.* فالاتفاقيات التونسية الفرنسية أصبحت وسيلة من أجل تقسيم الشّعب التونسي و الحزب الحر الدستوري الجديد إلى مساندين أو معارضين لهذه الاتفاقيات، و هي بذلك أصبحت خطرا على الأمّة. و هي بالنسبة لصالح بن يوسف مناورة استعمارية و خطر على الأمة. أما بالنسبة للحبيب بورقيبة فهي لا يمكن أن تكون إلا خطوة إلى الأمام، و ذلك بالإعتماد على مبدأ "خذ و طالب " الذي أثبت نجاعته مع مرور الأيام.

4.4.5.5 الإتّفاقيات: ضرب للهويّة العربية الإسلامية

لقد افتتح صالح بن يوسف خطاب جامع الزّيتونة مشددا على مسألة الإنتماء العربي و الإسلامي لتونس، و هو مبدأ حسب الزّعيم يتطلّب التضحية "بكل عزيز و غال" من أجل المحافظة عليه. فهل يعني ذلك أن البورقيبيين قد تنازلوا عن هذا المبدأ بسبب إمضائهم الإتفاقيات ؟

صرّح بيار جولي Pierre July وزير الشّؤون التّونسية و المغربيّة في بيانه خلال المفاوضات التّونسية الفرنسيّة و بعد سقوط حكومة منداس فرانس أنّ " *فرنسا لا تفكّر في مغادرة تونس أو المغرب الأقصى مؤكّدا أنّ المخاطبين التّونسيّين متأثّرون بالثّقافة الغربية بحكم أنّ الغرب يستهويهم أكثر من الشّرق و هم يرغبون اليوم بصدق نيّة أن تتبوّأ بلادهم مقعدا كريما في العالم الغربي دون أن يفترقوا عن فرنسا لأنّهم يعلمون أن بلادهم لا يمكنها الإستغناء عنها* "[63].

إنّ هذه التّصريحات لوزير الشّؤون التّونسية و المغربية تتناقض مع شعار اليوسفية القائل بأنّ " تونس أرض عربيّة مسلمة"، و فيه إشارة إلى التوجّه التّغريبي لوفد التفاوض "البورقيبي" .

4.5 الشعارات المرفوعة في هذا الخطاب

4.5.1 الهوية

عرّف الفيلسوف التونسي الأستاذ فتحي المسكيني الهويّة[64] في كتابه " *الهويّة و الحرّية نحو أنوار جديدة* " قائلا:

" *نحن نعلم أنّ الهويّة ليس مجرّد شعور خاص بهذا الشّخص أوذاك، بل هي جهاز انتماء أو لا تكون. و مثل كلّ جهاز ، لا يمكن لأيّ هويّة أن تعمل في أفق روحي ما إذا لم تكن تملك شكلا معيّنا من الإلزام و فنّا معيّنا من الإنضباط.*"[65]

يمكننا الإستفادة من هذا التّعريف من خلال اعتبار الهويّة " جهاز انتماء" و هي مُلزمة و تستوجب الإنضباط. و صالح بن يوسف يعتبر أنّ تونس تنتمي إلى محيطها المغاربي و إلى جذورها العربية الإسلامية. و الأفق الذي يجب أن يعمل فيه "جهاز الإنتماء" بالنّسبة لصالح بن يوسف هو الأفق الشّرقي الذي جمع الدّول الأفرو– آسياوية في مؤتمر باندونغ.

و قد اعتبر محمّد المنصف المنستيري في مقاله " *نظرة تحليلية خاطفة للإتّفاقيّات*" أنّ البنود الخاصّة بالجنسية تعدّ خروجا عن الدّين الإسلامي و انتهاكا صريحا للسيادة التّونسية.[66] و يمكن اعتبار هذا المقطع إشارة غير مباشرة إلى الخيار التغريبي للحبيب بورقيبة الذي يتناقض مع مقتضيات و مستلزمات الإنتماء العربي الإسلامي لتونس.

و في القاهرة ألقى ابراهيم طوبال– اليوسفي– ممثل الحزب الحر الدستوري الجديد في لجنة تحرير المغرب العربي خطابا أكد فيه أن الإتفاقيات تهدف إلى " *تحويل تونس من الوجهة العربية إلى الغرب الإستعماري.*"[67]

و في حوار أجرته جريدة العمل مع الحبيب بورقيبة بعد إمضاء الإتّفاقيات يقول فيه: " *البلاد التونسية متّجهة نحو الغرب التي هي جزء منه...*"[68] و هنا إشارة واضحة إلى الخيار و التوجّه التّغريبي للحبيب بورقيبة، بل إنّ بيار جولي وزير الشّؤون التّونسية و المغربية اعتبر أنّ وفد التفاوض بأكمله يستهويهم الغرب: " *إنّ المخاطبين التّونسيّين متأثّرون بالثّقافة الغربيّة أكثر منهم بالشّرقيّة و أنّ الغرب يستهويهم أكثر من الشّرق.*" [69]

كما أكّد الحبيب بورقيبة في تصريح له خلال الممفاوضات التونسية الفرنسية لجريدة الإكسبراس الفرنسية L'express أنّ مصير تونس مرتبط بمصير فرنسا:" *إنّ الشّعب التونسي يحترم إلتزاماته و إنّ مصير بلادنا سيتواصل بجانب مصير فرنسا.*"[70] كما صرّح في 11 أفريل 1955 رغبة منه في إنجاح المفاوضات قائلا: " *تونس ستظل مخلصة لفرنسا و الكتلة الغربية على الدوام و أنّ حقوق فرنسا في تونس لم تمس بسوء.*"[71] و هو تعبير صريح عن إخلاصه لفرنسا و ميله للكتلة الغربية التي تتزعمها الولايات المتحدة الأمريكية. و نلاحظ في تصريح الحبيب بورقيبة اعترافه بحقوق فرنسا في تونس، و هو ما يناقض التوجه اليوسفي الذي يعتبر أن فرنسا ليس لها سوى مصالح في تونس.

4.5.2 الحرية و الإستقلال

يقول صالح بن يوسف بأنه قد رجع إلى الوطن من أجل دعوة لشعب التونسي و الحزب إلى رفع ألوية الحرية و الإستقلال: " لذلك *رجعت لأدعو الشعب التونسي و أدعو حزبي الذي كافحت فيه و مازلت أكافح لنشر ألوية الرسالة المقدسة، الحرية و الإستقلال.*" و يعتبر صالح بن يوسف أنّ " *مستقبل المغرب العربي المسلم مستقبل واحد و جزء لا يتجزأ...*"[72] و هو يعتقد "*أن حرية الشمال الإفريقي العربي المسلم حرية لا تتجزأ...*"[73]. فلماذا قبل صالح بن يوسف المفاوضات التونسية بمعزل عن الجزائر و المغرب؟

هذا المبدأ يقتضي عدم القبول أصلا بالمفاوضات مع فرنسا دون تشريك المغرب و الجزائر. ممّا يدل على أن تصوّر صالح بن يوسف لاستراتيجية الكفاح الوطني قد تغيّر في منتصف الطّريق؛ أي أثناء مرحلة المفاوضات، و خاصّة عند اقصائه منها و عدم التزام وفد التّفاوض بالشّروط أو الحدود الدّنيا المتوافق عليها. و قد تغيّر هذا التصوّر كذلك بفعل اندلاع الثورة الجزائريّة في نوفمبر 1954.

و قد ربط صالح بن يوسف استراتيجيته النضالية بالكفاح المشترك بين دول المغرب العربي من أجل التحرر الكامل لهذه المنطقة. و الحقيقة أنّ ذلك هو الهدف الأساسي الذي كان من وراء تأسيس لجنة تحرير المغرب العربي.

دعا صالح بن يوسف في خطاب جامع الزيتونة إلى احترام حقّ يعتبر حيويّا لكل معارضة سياسية ناشئة و هو حرية الرأي. و كان صالح بن يوسف يدرك جيدا أن كل معارضة سياسية جديدة سوف تُقاوم من خلال عدم فسح المجال لها بالإصداع برأيها. و قد صرّح في هذا الشأن قائلا:

"*إني أستنكر باسم هذا الحزب و باسم الشعب كل من يتصدى لمعارضة حرية الرأي أو من يضطهد من يقوم بإبداء رأيه في حق هذا الوطن مهما كان شأن هذا الرأي...*"[74]

و كأنّ صالح بن يوسف كان يدرك مسبقا بأن هذه الحركة الجديدة سوف تضطهد من طرف التيّار البورقيبي المدعوم من فرنسا. علما و أن صالح بن يوسف قد قام قبل عودة الحبيب بورقيبة من الشّرق بعرقلة و صدّ حركة الإتحاد و الترقي و زعيمها شمس الدين العجيمي التي تأسست سنة 1949[75].

إنّ حرّية التّعبير هي من الحقوق الأساسيّة للإنسان و قد أشار إليها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصّادر في 10 ديسمبر 1948 في بنده التّاسع عشر:

"*لكلّ شخص حقُّ التمتُّع بحرِّية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحقُّ حرِّيته في اعتناق الآراء دون مضايقة، وفي التماس الأنباء والأفكار وتلقِّيها ونقلها إلى الآخرين، بأيَّة وسيلة ودونما اعتبار للحدود.*"[76]

4.5.3 الوحدة

يؤكّد صالح بن يوسف ارتباط تونس بالمغرب العربي و تمسكه بوحدته و أنّ اسقلالها مرتبط باستقلال المغرب و الجزائر؛" *فهذا الواقع التونسي الملموس هو أن هاته البلاد التونسية بلاد عربية إسلامية و لا تستقل و لن تستقل و لن تؤمل استقلالها إلا إذا استقلت الجزائر و المغرب الشقيقتان*".

الواقع أثبت أنّ الإتّفقيات الفرنسية التّونسية كانت فعلا وبالا على التوجّه الوحدوي لبلاد المغرب، إذ تمّ بعد إمضاء هذه الإتّفاقيّات إرسال بعض الجنود التّونسيين إلى الجبهة من أجل استعمالهم ضدّ المقاومين الجزائريين. و قد تمّ استنكار هذا الأمر حتّى من طرف جريدة العمل النّاطقة باسم الدّيوان السياسي.

إنّ فرنسا تطبّق ما جاء في الإتّفاقيّات (الفصل العاشر)، و لا يمكن للحكومة التّونسيّة بأيّة حال التدخّل من أجل إرجاع الجنود التّونسيين الذين يقاتلون إخوانهم الجزائريّين[77].

إذن، فإن صالح بن يوسف يعتبر أن الإتفاقيات خطر يهدد الهوية العربية الإسلامية لتونس ووحدة الكفاح المشترك بين دول المغرب العربي. كما استند صالح بن يوسف في معارضته للإتفاقيات على دعم مؤتمر باندونغ لقضايا المغرب العربي و ضغطه على فرنسا من أجل منح استقلالها. و لذلك فإنه يعتبر أن الموافقة على الإتفاقيات هي خيانة للشعوب العربية و الشرقية المساندة للقضية التونسية: " *يجب على الشّعب حتى لا يخون عقيدته الوطنية و لا يخذل إخوانه في الجزائر و المغرب و حتى لا يخذل هذه المجموعة – شعوب باندونغ– أن لا يقر هاته الإتفاقيات..*". و لذلك فهو يكرر رجاءه للشعب بعدم الإعتراف بهذه الإتفاقيات و توحيد الكفاح المسلح مع الجزائر و المغرب من أجل دحر الإستعمار.

كما دعا صالح بن يوسف الشعب الجزائري إلى تجنب الإنقسام في إشارة إلى الخلاف بين بني مزاب[78] و بقية الجزائريين. و قد أبرز هذا المثل لكي يبين للحاضرين أهمية توحيد الصفوف الذي يؤدي إلى القوة و التغلب على الإستعمار.

خاتمة

لقد أردنا في هذه الورقة البحثية تحليل خطاب جامع الزيتونة للزّعيم التونسي صالح بن يوسف. و قد حاولنا قدر الإمكان الإستفادة من مناهج تحليل الخطاب، التي تطرّقنا إليها في المحور النظري من هذا البحث، إلاّ أننا لم نلتزم بأي منهج من مناهج تحليل الخطاب، و ذلك لأنّ أهداف المؤرّخ و غاياته من تحليل الخطاب تختلف عن غايات اللّغوي أو اللّساني، فالمؤرّخ يتعامل مع الخطاب السياسي على أنّه وثيقة تاريخية لاغير.

و قد استطعنا من خلال تحليل خطاب جامع الزيتونة التعرّف على أهم خصائص الخطاب السياسي اليوسفي و الملامح العامّة للمعارضة اليوسفية.

و إنّ هذا الخطاب،قد أسّس لمعارضة سياسية جديدة تحمل أهدافا و بدائل و تتغذّى أساسا من مرجعية وطنية كان يمثلها الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد، و لذلك فإنّ المعارضة اليوسفية قد نبعت من داخل الحزب الحر الدستوري التونسي و كانت وفيّة لمبادئه و لمقرّراته.

و قد أدّى هذا الخطاب في آخر المطاف إلى رفت الزّعيم صالح بن يوسف من الحزب، كما أدّى لاحقا إلى قمع المعارضة اليوسفية و تشتيتها بعد مؤتمر صفاقس الذي انعقد في 15 نوفمبر 1955.

ملاحق

خطاب جامع الزيتونة

بسم الله الرحمان الرحيم، والصلاة والسلام على أفضل خلق الله محمد بن عبد الله.

أيها المؤمنون، إخواني

إني في هاته اللحظة الرهيبة، ومن هذا المعهد الإسلامي العظيم الذي كان ولا يزال إلى يوم الدين يشع منه نور الإسلام.. ومن هذا المحراب الذي ينطق كله تاريخا وعظمة، ومجدا وعروبة وإسلاما، أتوجه إلكيم جميعا، وإلى الشعب التونسي، وأحييكم تحية الإسلام الخالدة: السلام علكيم ورحمة الله.. تحية أبلغها من أعماق قلبي، تحية أحملها لكم وقد حملنها لكم إخوانكم المسلمون في مشارق الأرض و أوصوني بتبليغها إياكم أولئك المسلمون الذين زرتهم، وكنت أحمل لهم نيابة عنكم رسالة الأخوة الإسلامية والعربية، وهؤلاء جميعا من مصر، وليبيا، والشام، والعراق، وإيران، وأفغانستان، والهند، وباكستان، وسيلان، وإندونيسيا، والفلبين، والصين، واليابان، ومكة، ويثرب مدينة محمد صلى الله عليه وسلم، يهيبون بكم جميعا بأن تحافظوا على رسالة الإسلام، وتكافحوا، وتعملوا، وتضحوا بكل عزيز وغال، لتبقى هذه الأراضي التونسية أراض عربية مسلمة لا يدنسها شبح الاستعمار، ولا يغيرها تغيير ما.

هاته أيها المؤمنون الرسالة التي أحملها لكم من إخوان لكم في الدين والعروبة، يفوق عددهم أربعمائة مليون. لقد حملت إليهم رسالتكم، وأبلغت لهم رسالة حزبنا العتيد، الحزب الحرب الدستوري التونسي، وأديت رسالة الوطن المفدى، وقمت بما استطعت من واجب التبليغ والأمانة.

أنتم تعلمون أني هاجرت إليهم، هاجرت إلى إخوان لنا في الملة والدين، كي أرفع لهم صوت تونس عاليا، وكي أؤلبهم تأليبا على قوى الاستعمار الغاشمة، حتى لا تكون قوة الاستعمار الفرنسي وحدها رأسا لرأس، مقابلة لقوى الإرادة والإيمان والكفاح وروح الفداء.

ذهبت إليهم- كما تعلمون-، وكنت أجوب المدن والعواصم، وأتصل بالحكومات والشعوب فألقى منهم جميعا كامل العطف والمودة والتشجيع، وكنت في تلك الفترات التي أقضيها بينهم صوتا مسموعا للشعب التونسي الأبي الذي كان يناضل ويكافح في سبيل الله والوطن، وكان دماؤه الزكية تسيل أنهارا فداء في سبيل الحرية والاستقلال: "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون."

كان الشعب التونسي المسلم العربي بجميع طبقاته يناضل ويكافح منذ كنت أنا أصرخ في الدنيا باسمه، وأنادي على لسانه بالحرية والاستقلال، وأشنع تشنيعا بالاستعمار الفرنسي، وبفرنسا التي تدعي أنها تمدن الشعوب، وتتستر وراء قناع الحرية والمساواة والعدالة أمام العالم، ووجدت أينما حللت آذانا صاغية، وشعوبا مؤيدة مشجعة لكفاح تونس وتضحيتها في سبيل الكرامة والحرية والاستقلال.

ذلك أيها الإخوان الطور التاريخي العظيم الذي مررنا منه- إلى وقت قصير- طور كان الشعب التونسي يثبت فيه وجوده للعالم، ويثبت كل ذلك بدمائه الزكية، وإيمانه في استرجاع حقه المغصوب، فكان ينشر الدعوة، ،ويسخر العالم بأسره في تأييده إلى أن تكون من ذلك كله ، أي من العمل الداخلي العظيم، والعمل المتواضع البسيط في الخارج مجموعة من الثوار أثرت تأثيرا كبيرا على المستعمر، إلى أن اضطرته الظروف والتجانس والثبات في الكفاح التونسي العظيم إلى الاعتراف بالحق لذويه، فرضخت فرنسا، واعترفت بحق تونس في الاستقلال، وجاء منداس فرانس إلى تونس في 31 يوليه، يعلن أن الشعب التونسي أصبح من النضج بحيث يجعله أهلا ليتمتع حالا وفورا بالحكم الذاتي، أو ما يسمونه بالاستقلال الداخلي.

ونحن جميعا رجال الحزب وزعماؤه قد قبلنا هذا التعهد من فرنسا، وصرحنا بأننا لا نقبل هذا الاستقلال الداخلي إلا إذا كان مرحلة حاسمة وقصيرة جدا نحو هدفنا الأسمى وهو استقلالنا التام.

وقد قبلنا هذا، وبدأت المفاوضات بين الحكومتين التونسية والفرنسية وتعثرت وتباطأت وطالت وتمططت لأن المفاوض التونسي كان أمام مفاوض لم تكن له حسن النية ولا الصدق في ما قاله وفي ما أعلن عنه أمام العالم أجمع.

و لقد كنت في ذلك الوقت متصلا اتصالا وثيقا بإخواني المفاوضين والمسؤولين، وكنا من حين لآخر نلمس جميعا في ما بيننا سوء نية الطرف الفرنسي، ولطالما حذرت من ذلك، ولطالما نهت من الوقوع في المزالق والحذر من الانزلاق في طريق التنازل، وفي طريق اختيار (شيء أحسن من لاشيء)، ولكن وا أسفاه، ختمت تلك المفاوضات بما يسمونه الاتفاقات التونسية- الفرنسية التي كان القصد الأول منها في خطاب منداس فرانس أنها مجرد وسيلة لضمان مصالح الفرنسيين- لا حقوق الفرنسيين- لأنه لو أتت كلمة حقوق في خطاب منداس فرانس لما قبلناها أساسا للمفاوضات، لأننا بذلك نكون قد قبلنا واعترفنا للطرف المقابل بأن له ولرعاياه في بلادنا حقوقا.

وإن الحقوق لا يمكن أن تكون إلا لأبناء الوطن وحدهم، وإن الوطني الصميم الذي يعمل لإنقاذ بلاده وتخليصها من النير الأجنبي، لا يقدر ولا يمكن له أن يعترف للأجنبي الدخيل بحق من الحقوق، سواء أكانت سياسية أو غيرها. فليست له إلا مصالح ليعيش كبقية المواطنين.

ولما قبلنا المفاوضات، كان القصد منها أن تكون لضمان مصالح الجالية الفرنسية في هذه البلاد، لا أن تؤول إلى اتفاقيات، أقرت بصفة صريحة واضحة لا تقبل الشك. الوضع الاستعماري الموجود الذي قاومه الشعب التونسي منذ انتصاب الحماية على هذه البلاد، لأنه نظام من أهلها وإعطائها إلى الأجانب المغتصبين، واقتضى القضاء على السيادة التونسية، واعتبار أن البلاد التونسية ليست كغيرها من البلدان- التي دونا أو أرقى منها-، والتي تمتعت باستقلالها التام، أو في طريق الاستقلال التام.

فهذا النظام الاستعماري وكأنه أثر على عقلية البعض منا حتى أصبح لا يتصور أنه يمكن أن تصبح هاته الرقعة من الأرض متمتعة بحريتها واستقلالها مثل غيرها من بلدان العالم. فالاستعمار والنظام المفروض قد خلقا عقلية في قسم من التونسيين تجعل صاحبها يشعر بمركب النقص، وأنه دون فرنسا، ومحتاج إليها دائما وأبدا، أو إلى غيرها من بلدان الغرب...هاته العقلية جعلته يعتقد أنه لا يمكن أن يتخلص نهائيا من فرنسا وأن تكون تونس وطنا مستقلا مرتبطا بشعوب تقوم إلى جانبه يمينا وشمالا، أو مجموعة أخرى من الشعوب يتضاعف تأثيرها كل يوم على أحداث العالم وسياسته.

فهاته الكتلة أو المجموعة من الشعوب التي تجمع أكثر من ثلثي سكان المعمورة، تمتد من طوكيو إلى مراكش، اجتمعت في مؤتمر باندونغ، وأقرت أنها تريد أن تلعب دورا تاريخيا في مقدرات العالم، وأثبتت أنها إنما اجتمعت لنصرة الحق، وتحرير الشعوب لا اللصوصية والاستعمار، والسيطرة أو التنافس والنية السيئة، واقتسام شعوب الأرض.

إن هاته الكتلة التي تكونت في أقل من لمح البصر، قد جمعت بين أجزائها العربي والآسيوي، والبوذي والهندوكي، والصيني والياباني، وحتى الوثني، بدون تفريق في الجنس والدين. وهي مكونة من شعوب أمم وأقطار قد ذاقت كلها ويلات الاستعمار الغربي، وأصبحت تعتقد أنه لا يمكن لأي جزء من هاته الكتلة أن يعيش كريما، إلا إذا تحرر من قبضة الاستعمار. وهاته الكتلة تجمع بينها فكرة واحدة، وعزيمة واحدة، ألا وهي تخليص ما بقي في الدنيا من شعوب ترزح تحت نير الاستعمار الغربي. فأول اجتماع في 21 أفريل الفارط سجل نتيجة هائلة، وهي مطالبة دول باندنغ بأن يقع اعتراف فرنسا باستقلال شعوب تونس والجزائر ومراكش. وكان هذا القرار إنذارا لفرنسا بأنها إذا لم ترجع للصواب وتعترف لتلك الشعوب بحقها في الحرية والاستقلال، فإن مؤتمر باندونغ الذي سيعقد قريبا في القاهرة سوف يحاسب فرنسا حسابا عسيرا على ما تقترفه من أعمال وحشية، وتعذيب وتقتيل وإراقة دماء إخواننا الأبرياء المجاهدين الذين لا ذنب لهم - سواء في الجزائر أو المغرب- إلا المطالبة بحقهم في الحرية و الإستقلال.

و إني باسمكم من هذا المحراب التاريخي العظيم أتوجه إليهم مكبرا و مجلا بطولتهم الرائعة و استماتتهم و كفاحهم و استبسالهم. تلك الصفات التي يتحلى بها إخواننا الجزائريون و المغاربة و تدفعهم دفعا إلى الموت في سبيل حرية المغرب العربي، نحييهم باسمكم جميعا و نعبر لهم عن تأييدنا و تشجيعنا و تضامننا معهم لأننا نعتقد كما يعتقد إخواننا في الجزائر و مراكش أن حرية الشمال الإفريقي العربي المسلم حرية لا تتجزأ و لا يمكن أن تنال شعبا من الشعوب الشمال إفريقية، بينما يبقى الآخر أو الآخران تحت السيطرة الإستعمارية. فلا يؤمل و لن يؤمل استقلال لشمال إفريقيا إلا إذا كان استقلالا كاملا شاملا تتمتع به هاته المجموعة المسلمة الهائلة من أقصى المغرب إلى حدود مصر.

إن مستقبل المغرب العربي المسلم مستقبل واحد و جزء لا يتجزأ فنسمع و نقرأ كل يوم أن إخوانا لنا في الدين و الوطن يستشهدون بالعشرات بل بالمئات بل بالآلاف من أجل تنظيم هذا المغرب و السعي لتحرير هذا الوطن الكبير. فالتاريخ الحديث علمنا أن الإستعمار الفرنسي منذ وطئ أرض الجزائر أصبح بحكم التاريخ يتوسع و يحتل حتى شمل مراكش و تونس.

و مؤتمر باندونغ له خطة واضحة إزاء قضايا شمال إفريقيا فهو يطالب بصراحة بالاعتراف لشمال إفريقيا باستقلاله و سيحاسب فرنسا. و لقائل أن يقول ماذا عساها أن تصنع هاته الشعوب و هل ستعيننا بالدبابات و الرشاشات و قواتهم لإخراج قوات فرنسا، أقول لكم ليس ذلك ما تريده شعوب باندونغ و إنما وسائل أخرى تضغط بها على فرنسا و هي أوقع من الحرب و قد سبق لتلك الدول أو لبعضها أن ضغطت على هولاندا في صراعها مع إندونيسيا سنة 1949 و اتخذت قرارات كانت أقوى من الحرب و كانت من الأسباب التي دعت هولندا للاعتراف باستقلال إندونيسيا. فهذا الجو الذي ابتدأ يبرز ويتمخض وتتبلور أجزاؤه منذ أن بدأنا المعركة مع فرنسا في الميدان الخارجي في يناير 1952، بعد أن مررنا بالأمم المتحدة، وسجلنا انتصارا بأن تحصلنا على حقنا في تقرير المصير، والتمتع باستقلالنا التام، واصلنا السير إلى أن وصلنا إلى باندونغ مؤلبين العالم والدنيا على الاستعمار.

فوصلنا إلى الاتفاقيات التي أبرمت بين الطرف التونسي والطرف الفرنسي في هذا الجو القاتم الثقيل، جو الصراع القاتم بين إخواننا المجاهدين في الجزائر والمغرب، وبين قوى الاستعمار الفرنسي الغاشم، في هذا الجو الذي أصبحت فيه أميركا نفسها تفكر أن تستجلب عطف العالم الآسيوي الإفريقي والعالم العربي المسلم، في هذا الجو الذي كان يتحفز فيه العالم، ويدعو و يهدد فرنسا وغيرها من الدول الاستعمارية بأنها إذا تمادت على إنكار حق الشعوب المقدس في الاستقلال، فإن لهاته الدول وسائل كثيرة تضغط بها على فرنسا ضغطا هائلا يجعل أولئك اللصوص الاستعماريين مضطرين ومرغمين على الاعتراف بالحق لذويه.

في هذا الجو، وفي هذا الانقلاب العالمي، نحن في تونس نوقع على اتفاقيات تونسية فرنسية، قلت فيها يوم وصلت إلى أرض الوطن أنها عرقلة في سبيل استقلال البلاد، وقلت ومازلت أقول إن هذا الاستقلال الداخلي المزيف الذي يتمثل في علم واحد يرفرف على المباني التونسية، وحكومة متونسة داخليا ليس فيها سوى التونسي و دستور أو برلمان نؤسسه كما نريد ونشتهي. هاته كلها مظاهر السيادة الداخلية لا محالة، غير أنها لا تؤثر إلا على من تعود أن لا يرى غيرها في بلاده. فهي لا تؤثر على الشعب التونسي الذي كافح وضحى، وأراق دماءه أنهارا لا لينتفع بمظاهر السيادة، بل لينتفع بجوهر السيادة، ولا ليكون استقلالا مقيدا باتفاقيات تجعل الحكومة التونسية تحكم في نطاق كاد يكون معدوما و ليس لها من مستلزمات السيادة إلا الخيال- فحكومة لا تتصرف في الأمن و لا تتصرف في المالية و لا يمكن لها أن تحور اقتصاد البلاد و لا يمكن لها أن تقترض من غير فرنسا، و لا يمكن لها أن تشرع في القضاء... و برلمان لا يمكن أن يشرع في القضاء و الإقتصاد و الأمن لأن كل تلك الجوانب من الحياة التونسية تضبطها ضبطا محكما اتفاقيات تسمى الإتفاقيات التونسية الفرنسية و لا يمكن للمشرع التونسي و لا للحكومة التونسية أن يعملا عملا مفيدا خارج نطاق الإتفاقيات لأنها جاءت فأقرت الوضع الذي كنا نتألم منه و كنا نقاومه.

و لأجل ذلك أقول إن الإتفاقيات عرقلة و لست أقول ذلك جزافا أو من باب الدعاية بل أتكلم عن واقع هو هذه الإتفاقيات التي أقرت الوضع الإستعماري و التي تعترف بما لم تعترف به معاهدة باردو، فمعاهدة باردو لا تحرمنا صراحة من السيادة الخارجية و لا من الجيش و لا تجعل من الحكومة التونسية في علاقاتها الإقتصادية و المالية لا تتجاوز الرحمة الفرنسية.

فما تكرر طيلة أربع و سبعين سنة من اعتداءات على السيادة التونسية اعتداءات بقوة الحديد و النار، جاءت هذه الإتفاقيات و أقرته و أضفت عليه الصيغة المشروعة. لذلك أعتبرها أنا أنها رجعت بنا إلى الوراء لأنه لو كان لنا أن نسأل أنفسنا عن قيمة هاته الخطوة و مدى صلاحية البرلمان التشريعي، نجيب أنفسنا بأن مدى سلطان الحكومة الفعلي و مدى صلاحية البرلمان كاد لا يكون موجودا إذا اعتبرنا أن البلاد التونسية أمنا و قضاء و اقتصادا جزء لا يتجزأ، لأننا نرى هذا الجزء خارجا عن التونسيين أنفسهم، و هذا الجزء العظيم الهائل خارج عن صلاحية الحكومة التونسية و محدد و مغلول باتفاقيات بين دولة و دولة،نقول إنه لا يصح أن نغالط أنفسنا و نقول أننا تحصلنا على شيء.

وإني رجعت من مصر لأتمادى في رسالتي، ولأقول للشعب التونسي وأبين له إن هاته السيادة الزائفة لا تخفي إلا شيئا واحدا، وهو إضفاء الصبغة المشروعة على النظام الاستعماري الذي طالما كافحه الشعب، وإننا في سبيل هذا المظهر من السيادة، تنازلنا في هذه الاتفاقيات عن أقدس الأشياء والحقوق وأقررنا لفرنسا ما أخذته منا بالقوة والعنف سنة 1881، وهي التي تتولى من الآن فصاعدا الدفاع عنا في الداخل والخارج.

وهنا أقول صراحة وعلى مسؤوليتي إن تونس أصبحت بموجب الإتفاقية العامة داخلة في الوحدة الفرنسية، وإن فرنسا حصلت على هذه الاتفاقية على أن الدولة التونسية تقوم بكل عمل وإجراء تطلبه الدولة الفرنسية لفائدتها، أو القيام بمسؤوليتها سواء داخل فرنسا أو خارجها. فإن فرنسا لو اضطرت إلى دخول حرب أو عقدت معاهدة مع الأجنبي، واحتاجت إلى تونس، فإن البلاد التونسية تكون ملزمة بدون استشارتها أن تنفذ كل إجراء تقترحه الحكومة الفرنسية كأن تسخر لها اليد العاملة، وتجند لها التونسيين، وتفتك لها الأراضي من مالكيها. فهاته هي الوحدة الفرنسية .

فكل هاته الأخطار لم يسبق لها نظير في تاريخنا. لقد أصبحنا داخلين بحكم القانون في الوحدة الفرنسية التي قاومها الشعب، ورفضها جلالة الملك المعظم سنة 1947. وأن البند 62 من الدستور الفرنسي يقتضي أن أعضاء الوحدة الفرنسية يضعون كل ما يملكون من وسائل للدفاع عن أنفسهم وبلادهم، وأن فرنسا هي التي تتولى استغلال المساعي المشتركة، وهي التي توجه سياسة الدفاع. فالدستور الفرنسي يقتضي أقل مما تلزمنا به الاتفاقيات، فهو يعترف للدول المشاركة باستقلالها التام بينما الاتفاقيات تغلق في وجهنا باب الاستقلال التام، فقد تنازلنا تنازلات مريعة من ناحية الوطن والذاتية والتاريخ مقابل أشياء تافهة لا نستطيع تصريفها في حكومة و برلمان تونسي لفائدة الشعب.

لذلك رجعت لأدعو الشعب التونسي و أدعو حزبي الذي كافحت فيه و مازلت أكافح لنشر ألوية الرسالة المقدسة، الحرية و الإستقلال. و إني أدعو حزبي و من ورائه الشعب بأن لا يقرّ ما أقرّه غيره في ظروف لست أستعرضها الآن و أدعها إلى فرصة أخرى.

يجب على الشّعب حتى لا يخون عقيدته الوطنية و لا يخذل إخوانه في الجزائر و المغرب و حتى لا يخذل هذه المجموعة – شعوب باندونغ- أن لا يقر هاته الإتفاقيات و أن يعقد العزم من جديد على مواصلة العمل و مواصلة الكفاح للتخلص نهائيا من نير الإستعمار سواء اصطبغ بصبغة الإتفاقيات أم بصبغة أخرى.

أيها الإخوان، من هذا المحراب التاريخي العظيم أدعوكم و أقول لكم إن التاريخ لا ينتظرنا و إنّ أحداثا تاريخية هامة حذونا و بجانبنا و شمالنا و أمامنا، و قد يجوز أن لا تتكرر تلك الأحداث و لا تنتظرنا، أرجوكم أن تكفوا عن الإستبشار و الطرب للآمال الجسام التي أصبحتم تنظرون إليها في هذا العهد الجديد، عهد البناء و التشييد، فلنسأل أنفسنا بم يكون البناء و التشييد؟

أرجوكم مخلصا أن تعقدوا العزم و تصمموا على العمل و مواصلة الكفاح الذي توقف و ما ذلك إلا لأن فرنسا كعادتها وعدت بشيء و كان ذلك الوعد قد اعتبرناه جميعا مرحلة في سبيل أهدافنا السامية و لكن فرنسا لما نكثت عهدها و استرجعت منا ذلك الشيء الموعود به حتى أصبح اسما بلا مسمى و حتى كان إخواننا المفاوضون – هداهم الله- ربما تورطوا أو اغتروا أو أخطؤوا و أصبحنا مقيدين بهاته الإتفاقيات لكن هذا التقييد لا يلزم الشعب التونسي و لا الحزب الحر الدستوري التونسي أبدا لأن الحزب الحر الدستوري إلى الآن و لأنّ المنظمات القومية كمنظمات تتكون من تشكيلات و الحزب الحر الدستوري كمنظمة تتكون من تشكيلات دستورية كبرى – ليس شيئا من هذا قد أقر ما نسميه بالإتفاقيات. فالحزب و المنظّمات و الشعب التونسي كله هو الآن في حل بأن يلغي و يرفض هاته الإتفاقيات و أن يواصلوا العمل لتحقيق الأهداف التي من أجلها استشهد إخواننا بالآلاف و التي من أجلها يستشهد إخواننا بالجزائر و مراكش اليوم، و لنستأنف العمل مع إخواننا في المغرب و الجزائر لنصل إلى مرفأ النّجاح و نحقق أهدافنا السّامية.

و إني من هذا المحراب أتوجه إلى إخواننا الجزائريين و أقول لهم: انتهوا لكل ما يراد بكم من تقسيم في الصفوف و تفريق للوحدة، فكأني بالسلط الإستعمارية تحاول أن توجد فرقة و شحناء بين بني مزاب و بقية أبناء الجزائر حتى أصبح البعض من الجزائريين يعتبر إخوانه من بني مزاب أعداء و خصوصا لمجرد اختلاف في المذاهب. فاحذروا كل الحذر من التفرقة و المناورات التي تبثها الشركات الإستعمارية التي تريد أن تستحوذ على الشركات التي يستغلها بنو مزاب.

فإنا من هذا المحراب نتوجه لهم: إن القوة ليست في المدافع و البنادق بل القوة للشعوب الضعيفة في الوحدة و إحباط مناورات الإستعمار الذي يعمل للقضاء على تلك الوحدة. و إنا واثقون من أن هذا النداء سيكون له صداه، و ستعود الوحدة كما كانت قوية متينة في هذا الكفاح النبيل، ستعود الوحدة لأننا جربنا أن التفرقة هي البلية العظمى.

و نحن إذا ننتقد و نستنكر،نعترض و نرفض الإتفاقيات التونسية الفرنسية لأنها أصبحت وسيلة جهنمية لتقسيم الشعب بعضه عن بعض، فالشعب يجب أن ينتبه لهاته المناورة الإستعمارية و لا ينتبه إلا باعتباره لهاته الإتفاقيات التونسية الفرنسية بلية و خطرا على الأمة، و يتحد من جديد، و يتناسق و يستعد لبناء صرح الأمة.

و إني باسمكم جميعا أستنكر كل الإستنكار و أشنع كل التشنيع بمن تحدثه نفسه بأن يعتبر هذا الشعب الأبي المكافح المجاهد الذي أبهر العالم بإيمانه و شجاعته، أصبح ربّما قطيعا من الغنم يساق ليس له الحق إبداء الرّأي في حرية و صراحة. إني أستنكر باسم هذا الحزب و باسم الشّعب كل من يتصدى لمعارضة حرية الرأي أو يضطهد من يقوم بإبداء رأيه في حق هذا الوطن مهما كان شأن ذلك الرأي، و إنّا نعتبر من يقوم بذلك العمل خارجا و مارقا عن الوحدة الوطنية و يعامله الشّعب و الحزب بما يعامل به المارق عن الحظيرة القومية، فكيف يمكن أن نقبل أن يعيش التونسيون أو بعضهم تحت كابوس، و إنّه لا يمكن لهم و لا يسمح لهم بأن يجهروا بآرائهم في تقرير مصير بلادهم.

هل أن مصير البلاد الذي أقره النظام الجديد و أقرته الإتفاقيات هو حقوق جماعات دون أخرى. فهذا المصير مصير الشعب و الأمة جمعاء و يحق للأمة كلها أن تتفاوض و تتشاور و تدرس أمرها. و لنكن كما قال الله تعالى في مناقشاتنا و آرائنا" فادفع بالتي هي أحسن.الآية" و قال الله " إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم". و لم يقل يا أيها المسلمون و ذلك هو الروح الإسلامي الكريم الذي لا يفضل واحدا على آخر إلا بالتقوى، هاته الآية دستور المسلمين في المساواة و الحقوق، فهي تبلغ درجة الكمال في التسوية البشرية بين أفراد البشر جميعهم.

فإذا قال واحد إن عملا أو شكلا من الحكم إذا استقر في البلاد يكون خطرا، كيف يمكن أن يكون ذلك عملا يستحق الإرهاق و الإضطهاد؟

جئت لأبين و أقول: حرام عليك أيها الشعب أن ترجع القهقرى و للفوضى و تتناحر و تتطاحن لأن هذا الطرف أو الشق لا يوافق الطرف أو الشق الآخر، جئت لأرفع هذا الكابوس و لأرجع الرأي العام التونسي و الضمير التونسي إلى الطريق الذي ربما حاد عنه.

و إني بهذا العمل لم أكن لأتأثر بأي تأثير و لم أكن أعمل لفائدة دولة من الدول الأجنبية الصديقة أو العدوة، خلافا لما يدعيه بعض من الأجانب أو حتى بعض من التونسيين.

إن موقفي هذا من الإتفاقيات الفرنسية التونسية و دعوتي إلى نقضها و مقاومتها، أعمل بوحي من ضميري، و إني من هذا المحراب أصرح تصريحا لا يقبل التردد إن موقفي هذا سواء من الإتفاقيات أو سواء من الوضع الحالي بتونس أو سواء من التعفن الذي يتعثر فيه الفكر العام التونسي، ليس ذلك إلا بوحي من ضميري ووجداني. و إنني على كل أبتغي الوفاق معرضا عن التخرصات و التهديدات.

هذا موقف أوحاه إلي ضميري، و هذا ما جعلني أرجع إلى وطني لأبلغه للناس، و كنت أستطيع البقاء في القاهرة مبجلا محترما أستقبل الصحفيين و العظماء، لكن ممارستي للكفاح المقدس تمنعني من مثل ذلك الموقف و يفرض علي أن أبلغ الرسالة إليكم أيها المؤمنون.

و قبل الختام أريد أن أتوجه بالشكر باسمكم جميعا إلى إخواننا العرب و المسلمين، شعوبا و حكومات، و إلى الجامعة العربية و الكتلة الإفريقية و الآسيوية. و لا ننسى يوغسلافيا و الدول الشرقية التي كانت تناصرنا، و كل الهيئات و الشعوب و الشخصيات التي ناصرت قضيتنا و عملت لخير بلادنا.

و أريد أن أؤكد لهم و أعلن لهم باسمكم و باسم هذا الشعب و هذا البلد العربي المسلم أن تونس العربية المسلمة التي اكتمل كيانها بعد ثلاثة عشر قرنا و نصفا في الإسلام بأنّها ستبقى معهم عربية مسلمة مهما كانت وسائل الإغراء و التحطيم و التضليل، و إننا لا نقبل عملا و مصيرا يقرره غيرنا إذا كان هذا المصير يؤثر على غيرنا من عرب و مسلمين متصلين بالكتلة العربية و الإسلامية.

فأنتم أيها الإخوان العرب و المسلمين في كل بقاع الدنيا الذين تباعد بيننا و بينكم المسافات، أطمئنكم باسم الشعب التونسي المسلم العربي، أننا لا نقبل مصيرا غير مصيركم، و إنا نكافح لآخر قطرة من دمائنا حتى نحقق لهذا الشعب مصيره الحقيقي الطبيعي و إنه لا يمكن أن يقلب احتلال طال 74 سنة كيانا إسلاميا عربيا مر عليه أكثر من ثلاثة عشر قرنا.

فهذا الواقع التونسي الملموس هو أن هاته البلاد التونسية بلاد عربية إسلامية لا تستقل و لن تستقل و لن تؤمل استقلالها إلا إذا استقلت الجزائر و المغرب الشقيقتان.

تلك هي الرسالة التي أودعها في قلوبكم لا في أفكاركم، فهي رسالة وحدة المغرب العربي الدائمة الموفقة، و علينا أن نرتبط من جديد و نتوثق، فقد أصبح ميزان المغرب العربي في الميدان الدولي يفوق ميزان الدول الأخرى.

و نحن من جهة أخرى مرتبطون ارتباطا طبيعيا و جغرافيا بالمجموعة العربية الإسلامية، و هي المجموعة العالمية القوية بما انضم إليها من شعوب إفريقيا و آسيا، و أصبحت تمثل ثلثي العالم، و سيكون لها المستقبل و توازن بين قوى العالم.

فهذا الجزء العظيم من العالم المتوثب المتحفز بينما غيره يسير إلى الوراء، إنما يزيدنا إيمانا و قوة و اندفاعا في سبيل رسالتنا المقدسة ألا و هي تحرير المغرب العربي كله تحريرا كاملا إلى جانب الكتلة العربية الإسلامية.

جريدة الصباح (9،8 أكتوبر 1955)

هوامش

[1] تمّ اتّخاذ قرار رفت صالح بن يوسف في اليوم الموالي من إلقاء خطاب الزيتونة أي يوم 8 أكوبر 1955 اثر اجتماع الحبيب بورقيبة بالديوان السياسي للحزب الحر الدستوري التونسي الجديد.

[2] وزن فاعَل يعني المبادأة أصلاً ثم المشاركةَ، والمشاركةُ لاتكونُ إلا في حدث يستغرق زمناً طويلاً نسبيا.أنظر: مجلة اللسانيات العربية، العدد 7، جوان 2018، منهج جديد في علم الدلالة الصرفي :الأفعال المزيدة نموذجا، الرياض المملكة العربية السعودية، ص.241 .

[3] الفراهيدي (الخليل بن أحمد)، كتاب العين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت 2003، الجزء 1، ص. 419.

[4] ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة 1984، المجلد الثاني، صص. 1194 ،1195 .

[5] الرازي (محمد فخر الدين)، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت 1983، ج26، ص. 188.

[6] الآمدي(علي بن محمد) ، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1986، الجزء الأول، ص.136.

[7] الرازي (محمد فخر الدين)، المحصول في علم الأصول، المجلد الأول، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت 1999، ص. 403.

[8] موساوي (فريدة)، مفهوم تحليل الخطاب عند زيليغ هاريس، مجلة إشكالات في اللغة و الأدب، مجلد 8، عدد 4، الجزائر 2019.

[9] التداولية pragmatique، هي نزعة في دراسة الخطاب، و هي تهتم بعلاقات العلامات بمستعمليها و استعمالها و آثارها، أنظر: معجم تحليل الخطاب، إشرف باتريك شارودو و دومينيك منغنو، ترجمة عبد القادر المهيري و حمادي صمود، المركز الوطني للترجمة، تونس 2007، ص.441.

[10] المرجع السابق، معجم تحليل الخطاب... ص. 180.

[11] مانغونو(دومينيك)، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، سلسلة منشورات الإختلاف، الجزائر 2008، ص.38.

[12] المرجع السابق، مانغونو(دومينيك)، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب... ص.40.

[13] بن ظافر الشهري (عبد الهادي)، استرتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان 2004، ص.37.

[14] مرجع مكرر، معجم تحليل الخطاب، إشرف باتريك شارودو و دومينيك منغنو... ص. 181.

[15] مرجع مكرر، معجم تحليل الخطاب، إشرف باتريك شارودو و دومينيك منغنو... صص. 180، 181.

[16] بن ظافر الشهري (عبد الهادي)، استرتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان 2004، ص.39.

[17] مصابيح (محمد)، مفهوم النص و الخطاب، موقع ناشري، تاريخ النشر: 06/ 02/ 2009، تاريخ التصفح: 18/ 07/ 2020، https://www.nashiri.net/articles/literature-and-art/4022-v15-4022.html

[18] يوسف عبدالرحيم ربابعة و نبال نبيل نزال، الخطاب الأخير للرئيس بن علي بين التفويض و التقويض (دراسة في تحليل الخطاب السياسي)، دراسات، العلوم الإنسانية و الإجتماعية، المجلد 42، العدد 3، 2015، ص.755.

[19] ما يميّز علم النص هو إقباله الكلي على النص في حين أنّ علم البلاغة و اللغة و الأسلوبية.. تقبل على النص جزئيا و تدرس منه ما تحتاجه فقط. أنظر: المنظري (سالم)، الترابط النصي في الخطاب السياسي، بيت الغشام للنشر و الترجمة، مسقط 2005، ص.5.

[20] المنظري (سالم)، الترابط النصي في الخطاب السياسي، بيت الغشام للنشر و الترجمة، مسقط 2005، ص.5.

[21] مرجع مكرر، معجم تحليل الخطاب، إشرف باتريك شارودو و دومينيك منغنو.. ص. 181.

[22]مرجع سابق، بن ظافر الشهري (عبد الهادي)، استرتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية.. ، ص.39.

[23] مرجع مكرّر، يوسف عبدالرحيم ربابعة و نبال نبيل نزال، الخطاب الأخير للرئيس بن علي بين التفويض و التقويض (دراسة في تحليل الخطاب السياسي)..ص.752.

[24] مرجع مكرّر، يوسف عبدالرحيم ربابعة و نبال نبيل نزال، الخطاب الأخير للرئيس بن علي بين التفويض و التقويض (دراسة في تحليل الخطاب السياسي).. ص.751.

[25] عبد اللطيف (عماد)، استراتيجيات الإقناع و التأثير في الخطاب السياسي: خطب الرئيس السادات نموذجا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2012، ص. 90

[26] المرجع السابق،عبد اللطيف (عماد)، استراتيجيات الإقناع و التأثير في الخطاب السياسي... صص. 90،91.

[27] مرجع مكرّر،عبد اللطيف (عماد)... صص.90،91.

[28] مرجع مكرّر،عبد اللطيف (عماد)... ص. 86.

[29]مرجع مكرّر، يوسف عبدالرحيم ربابعة و نبال نبيل نزال)..ص.752.

[30] Harris Zellig S , Analyse du discours, Traduit par Dubois −Charlier Françoise , In Langage, N 13, Paris 1969. pp .8,9.

[31] فوداك(روث) و ماير (ميشيل)، مناهج التحليل النقدي للخطاب، ترجمة حسام أحمد فرج و عزة شبل محمد، المركز القومي للترجمة، القاهرة 2014، ص.7.

[32] الشاوش(محمد)، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، المؤسسة العربية للتوزيع، الجزء الأول، جامعة منوبة، كلية الآداب منوبة، تونس 2001، ص 153.

[33] المرجع السابق،الشاوش(محمد)، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية... ص 153.

[34] يعود استعمال التداولية إلى الفيلسوف تشارلز موريس (Charles Morris) انطلاقا من عنايته بتحديد الإطار العام لعلم العلامات أو السيميائية ؛ من خلال تمييزه بين ثلاثة فروع، و هي:

- النحو أو التراكيب (syntax) و هو: دراسة العلاقة الشكلية بين العلامات بعضها البعض.
- الدلالة (semantic) و هي : دراسة علاقة العلامات بالأشياء التي تؤول إليها هذه العلامات.
- التداولية (pragmatics) و هي: دراسة علاقة العلامات بمستعمليها و مؤوّليها. و قد عمد الباحثون إلى هذا المنهج ليمدهم برؤى متعددة، نتيجة لقصور الدراسات الشكلية، و إهمالها لمقاربة اللغة في تجليها الحقيقي، أي في الإستعمال التواصلي بين الناس.أنظر: مرجع مكرّر، بن ظافر الشهري (عبد الهادي)، استرتيجيات الخطاب... ص.21.

[35]مرجع مكرر، بن ظافر الشهري (عبد الهادي)، استرتيجيات الخطاب...ص.24.

[36] مرجع مكرر، بن ظافر الشهري (عبد الهادي)، استرتيجيات الخطاب... ص.22.

[37] مرجع سابق، عبد اللطيف (عماد)، استراتيجيات الإقناع و التأثير في الخطاب السياسي... ص.84.

[38] العروي (عبد الله)، مفهوم التاريخ (الألفاظ و المذاهب)، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، الرباط 2005،ص. 74.

[39] مرجع سابق، العروي (عبد الله)، مفهوم التاريخ (الألفاظ و المذاهب)...ص. 74.

[40] مرجع مكرّر، يوسف عبدالرحيم ربابعة و نبال نبيل نزال... ص.754.

[41]الشروط التي حددها صالح بن يوسف من أجل القبول بالمفاوضات هي التالية:

- ✓ تحديد الآجال الزمنيّة بالنّسبة لجميع الإتّفاقيّات الّتي بها مساس بالسيادة الوطنيّة.
- ✓ تشكيل حكومة تونسيّة صرفة تتمتّع بجميع المسؤوليّات المتعلّقة بحفظ الأمن.

- ✓ تونسة القضاء.
- ✓ احالة شؤون الثّقافة و التعليم إلى الحكومة التّونسيّة.
- ✓ الحرية الكاملة في المجال الإقتصادي و النّقدي.

أنظر: جريدة الزّهرة، تصريح خطير للزّعيم الكبير الأستاذ صالح بن يوسف،4 جانفي 1955،العدد 14131.

[42]النجار(حسن)، المعارضة اليوسفية: صراع زعامات أم صراع خطط و استراتيجيات، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية بتونس، ديسمبر 2020، ص. 380.

[43] Nous devons utiliser la situation crée par l'agitation fellagha pour faire pression sur les négociateurs tunisiens. Mais n'ayons pas d'illusions. Ils n'ont en réalité aucun moyen de mettre fin à cette agitation. Il est clair qu'une partie importante des fellaghas leur échappe. » : Vers le règlement du problème des fellaghas tunisiens. Notes de Pierre Mendès France pour Edgard Faure, Christian Fouchet et André Pélabon. Washington, 18 et 19 novembre 1954. In Mendes France (Œuvres complètes, III).Gouverner, c'est choisir. Paris Gallimard, pp.482-484.

[44] ضيف الله(محمد)، صالح بن يوسف:خطب ووثائق أخرى، المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر، جامعة منوبة، تونس 2015.ص.63.

[45] لقد استعمل صالح بن يوسف في خطابه أداة التأكيد " إنّ" 37 مرّة.

[46] علما و أن صالح بن يوسف قد استعمل حوالي 586 مصدرا أغلبها مصادر مشتقة من الفعل الثلاثي المجرد (344 مصدرا) أي بنسبة 58,7% من مجموع عدد المصادر المستعملة في الخطاب. و المصدر هو المعنى الموجود في الفعل يعبّر عن حدث مجرّد عن أيّ زمان. و هو حسب الجرجاني " إسم اشتق منه الفعل و صدر عنه" و يسمّى المصدر الحدث و اسم الحدث لدلالته على ما قام به الفاعلون من أعمال. أنظر: جبر (حنان)،المصدر بين التنظير و الإستعمال، رسالة لنيل شهادة الماجستير، كلية الدراسات العليا الجامعة الأردنية 2003، ص.9.

[47]معجم المعاني، https://www.almaany.com

[48] جريدة الزهرة، تصريحات هامّة للمجاهد الأكبر الحبيب بورقيبة،12 جويلية 1955،العدد 15101.

[49] مرجع سابق، الفراهيدي (الخليل بن أحمد)، كتاب العين... ص. 183.

[50] في17أوت 1950عوّضت حكومة شنيق حكومة الكعّاك و قد انضمّ إليها صالح بن يوسف كوزير للعدل بموافقة مؤتمر الحزب المضيّق (بين 4 و 8 أوت 1950) رغم معارضة غالبية أعضاء لجنة تحرير المغرب العربي و عدم رضاهم عن مشاركة الحزب الحرّ الدّستوري التّونسي الجديد فيها.

[51]يقصد بالحرب الباردة، حالة العداء الّتي نشأت في العلاقات بين الكتلتين الشّرقيّة و الغربيّة بعد الحرب العالميّة الثّانية. و قد أطلق على تلك الحالة صفة الحرب لأنّها اتّسمت باستخدام كل طرف كافّة أدوات الحرب العسكريّة، و السّياسيّة و الإقتصاديّة و الإعلاميّة ضد الطّرف الآخر. و لكن وصف الحرب بأنّها باردة كان يشير إلى أنّ هذا الإستخدام لم يتصاعد إلى حد المواجهة المسلّحة المباشرة على غرار ما حدث في الحربين العالميتين الأولى و الثّانية. أنظر: سليم (محمّدالسيد)، تطوّر السياسة الدولية في القرنين التّاسع عشر و العشرين، كلية الإقتصاد و العلوم السّياسيّة، جامعة القاهرة، دار الفجر للنشر و التوزيع،الطّبعة الأولى، 2002،ص.566.

[52] مصدر سابق، جريدة الزّهرة، تصريح خطير للزّعيم الكبير لأستاذ صالح بن يوسف....

[53]سقوط حكومة منداس فرانسكان بأصوات 315 مقابل 273، و قد أكّد م.كولونا ممثل الكتلة النيابيّة لفرنسي البلاد التونسية أنّ التّشكيلة الوزاريّة الجديدة يجب عليها أن تسرّع في مفاوضات على قواعد أخرى تختلف عن القواعد الأولى، و ذلك ما حصل فعلا و ذلك شدة تأثير هذه الكتلة على البرلمان الفرنسي.

[54] « Un désir net se fait jour ici de voir se disloquer ce clan "arabo-asiatique" qui ,s'il se maintenait, créerait dans le monde une espèce de troisième force avec laquelle les occidentaux seraient obligés de compter … leur œuvre, si elle réussit ,risque, en créant dans le monde une troisième force libérale, progressiste et pacifiste, intermédiaire entre les deux " grandes forces" …l'objectif n°1 de nos adversaires est devenu maintenant :empêcher la naissance de cette coalition des peuples dépendants et ex-dépendants d'Afrique et d'Asie… » Ladgham (Bahi), correspondances. Les années décisives:1952-1955, Tunis, Cérès Productions, 1990, lettre de Mahmoud Messadi à Bahi Ladgham (19 octobre 1952), pp.57, 58,59 :

[55] عليّة الصغير(عميرة)، اليوسفيّون و تحرّر المغرب العربي، المغاربية للطباعة و النشر و الإشهار، الطبعة الثانية، تونس 2011 ، ص.7.

[56] المنستيري (محمّد المنصف)، نظرة تحليلية خاطفة للإتّفاقيّات، جريدة الإستقلال، سبتمبر 1955،السّنة الأولى،العدد 1.

[57] جريدة الزّهرة، معالي الزّعيم الكبير صالح بن يوسف يستنكر من جديد الإتفاقيات التونسية الفرنسية،14 جويلية 1955،العدد 15103.

[58] المنستيري(محمّد المنصف)، الإتّفاقيّات التّونسية الفرنسية،جريدة الإستقلال،30 سبتمبر 1955،السّنة الأولى،العدد 1.

[59] République Française, Constitution de la Ve République, Préambule de la constitution du 27 octobre 1946,juillet 2015,P.35 : "La France forme avec les peuples d'outre-mer une Union fondée sur l'égalité des droits et des devoirs, sans distinction de race ni de religion. L'Union française est composée de nations et de peuples qui mettent en commun ou coordonnent leurs ressources et leurs efforts pour développer leurs civilisations respectives, accroître leur bien-être et assurer leur sécurité."

[60] Opcit.Ladgham (Bahi), lettre d'Ahmed Ben Salah à Bahi Ldgham (7 mai 1953), Tunis, Cérès Productions, 1990. P.178 : « A la C.IS.L certains membres influents ont effectivement souvent fait glisser cette notion d'Union Française, mais ils restent hésitants …Mais cette idée a été et sera constamment combattue par nous. »

[61] جريدة الزّهرة، على هامش تصريحات وزير الشّؤون التونسية و المغربية...،31 مارس 1955،العدد 15013.

[62] جريدة الزّهرة، الزّعيم الكبير الأستاذ صالح بن يوسف يفضي بتصريحات هامّة إلى جريدة "الدايلي اكسبراس" الأنقليزية،23 أكتوبر 1955،العدد 15188.

[63] جريدة الزّهرة، على هامش تصريحات وزير الشّؤون التونسية و المغربية...،31 مارس 1955،العدد 15013.

[64] لقد فرضت كلمة الهويّة نفسها كمصطلح فلسفي يدلّ على ما به يكون الشّيء هو نفسه. أنظر: الموسوعة الفلسفيّة العربيّة، معهد الإنماء العربي، بيروت 1986 ، الجزء الأوّل (الإصطلاحت و المفاهيم)، ص. 821.

[65] المسكيني (فتحي)، الهويّة و الحرّية: نحو أنوار جديدة، جداول للنّشر و التّوزيع، بيروت 2011، ص.16.

[66] م سابق، المنستيري(محمّد المنصف)، نظرة تحليلية خاطفة للإتّفاقيّات...

[67] فالح جاسم الخفاجي (فاطمة)، العلاقات السياسية المصرية – التونسية (1956-1970)، أطروحة من أجل نيل شهادة الدكتوراه (2016)،جامعة ذي قار،العراق،ص. 31.

[68] جريدة الزهرة، تصريحات هامّة للمجاهد الأكبر الحبيب بورقيبة،12 جويلية 1955،العدد 15101.

[69] جريدة الزهرة، على هامش تصريحات وزير الشّؤون التّونسية و المغربية في ندوته الصّحفية التي تحدّث فيها عن المفاوضات التونسية الفرنسية،31 مارس 1955،العدد 15013

[70] جريدة البلاغ، تصريح المجاهد الأكبر الزّعيم الحبيب بورقيبة،11 فيفري 1955،العدد 72

[71] مرجع سابق، فالح جاسم الخفاجي (فاطمة)، العلاقات السياسية المصرية – التونسية (1956–1970)...ص. 20.

[72] مرجع مكرّر ،ضيف الله(محمد)،صالح بن يوسف:خطب ووثائق أخرى...ص.51.

[73] مرجع مكرّر ،ضيف الله(محمد)،صالح بن يوسف:خطب ووثائق أخرى...ص.51.

[74] مرجع مكرّر، ضيف الله(محمد)، صالح بن يوسف:خطب ووثائق أخرى...ص.57

[75] النجار(حسن)، حركة "الإتّحاد و التّرقّي " و رئيسهاشمس الدّين العجيمي(1949)، بحث لنيل شهادة الماجستير في التّاريخ المعاصر،كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية، تونس2014.

[76] الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، موقع الأمم المتّحدة، https://www.un.org/ar/universal-declaration-human-rights/index.html

[77] جريدة الإستقلال، فرنسا تطبّق لإتّفاقيت بأمانة...،14 أكتوبر 1955،العدد 3.

[78] بني مزاب: مجموعة إثنية جزائرية تقيم في المنطقة الطبيعية وادي مزاب شمال الصحراء الكبرى في الجزائر . يتحدثون المزابية (تمزابت) وأيضا الدارجة وهم مسلمون إباضيون.

. قائمة المصادر والمراجع

أولا: العربية

المصادر :

- الرازي (محمد فخر الدين)، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت 1983، ج26.
- جريدة الإستقلال، فرنسا تطبّق لإتّفاقيت بأمانة...،14 أكتوبر 1955،العدد 3.
- الآمدي(علي بن محمد) ، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1986، الجزء الأول، ص.136.
- الرازي (محمد فخر الدين)، المحصول في علم الأصول، المجلد الأول، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت 1999.
- جريدة الزّهرة، تصريح خطير للزّعيم الكبير الأستاذ صلح بن يوسف،4 جانفي 1955،العدد 14131.
- ضيف الله (محمد)، صالح بن يوسف:خطب ووثائق أخرى، المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر، جامعة منوبة، تونس 2015.
- جريدة الزهرة، تصريحات هامّة للمجاهد الأكبر الحبيب بورقيبة،12 جويلية 1955،العدد 15101.
- المنستيري (محمّد المنصف)، نظرة تحليلية خاطفة للإتّفاقيّات، جريدة الإستقلال، سبتمبر 1955،السّنة الأولى،العدد 1.
- جريدة الزّهرة، معالي الزّعيم الكبير صالح بن يوسف يستنكر من جديد الإتفاقيات التونسية الفرنسية،14 جويلية 1955،العدد 15103.
- المنستيري(محمّد المنصف)، الإتّفاقيّات التّونسية الفرنسية،جريدة الإستقلال،30 سبتمبر 1955،السّنة الأولى،العدد 1.
- جريدة الزّهرة، الزّعيم الكبير الأستاذ صالح بن يوسف يفضي بتصريحات هامّة إلى جريدة "الدايلي اكسبراس" الأنقليزية،23 أكتوبر 1955،العدد 15188.
- جريدة الزهرة، تصريحات هامّة للمجاهد الأكبر الحبيب بورقيبة، 12 جويلية 1955،العدد 15101.

- جريدة الزهرة، على هامش تصريحات وزير الشّؤون التّونسية و المغربية في ندوته الصّحفية التي تحدّث فيها عن المفاوضات التونسية الفرنسية،31 مارس 1955،العدد 15013
- جريدة البلاغ، تصريح المجاهد الأكبر الزّعيم الحبيب بورقيبة،11 فيفري 1955،العدد 72
-

المراجع :

- مجلة اللسانيات العربية، منهج جديد في علم الدلالة الصرفي :الأفعال المزيدة نموذجا، الرياض المملكة العربية السعودية، ، العدد 7، جوان 2018.
- موساوي (فريدة)، مفهوم تحليل الخطاب عند زيليغ هاريس، مجلة إشكالات في اللغة و الأدب، مجلد 8، عدد 4، الجزائر 2019.
- بن ظافر الشهري (عبد الهادي)، استرتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان 2004.
- يوسف عبدالرحيم ربابعة و نبال نبيل نزال، *الخطاب الأخير للرئيس بن علي بين التفويض و التقويض (دراسة في تحليل الخطاب السياسي)*، دراسات، العلوم الإنسانية و الإجتماعية، المجلد 42، العدد 3، 2015.
- المنظري (سالم)، الترابط النصي في الخطاب السياسي، بيت الغشام للنشر و الترجمة، مسقط 2005.
- عبد اللطيف (عماد)، *استراتيجيات الإقناع و التأثير في الخطاب السياسي: خطب الرئيس السادات نموذجا*، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2012.
- فوداك(روث) و ماير (ميشيل)، *مناهج التحليل النقدي للخطاب*، ترجمة حسام أحمد فرج و عزة شبل محمد، المركز القومي للترجمة، القاهرة 2014.
- الشاوش(محمد)، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، المؤسسة العربية للتوزيع، الجزء الأول، جامعة منوبة، كلية الآداب منوبة، تونس 2001، ص 153.
- العروي (عبد الله)، مفهوم التاريخ (الألفاظ و المذاهب)، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، الرباط 2005.
- عليّة الصغير(عميرة)، ***اليوسفيّون و تحرّر المغرب العربي***، المغاربية للطباعة و النشر و الإشهار، الطبعة الثانية، تونس 2011.
- المسكيني (فتحي)، الهويّة و الحرّية: نحو أنوار جديدة، جداول للنّشر و التّوزيع، بيروت 2011.

الرسائل الجامعية:

- النجار(حسن)، المعارضة اليوسفية: صراع زعامات أم صراع خطط و استراتيجيات، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية بتونس، ديسمبر 2020.
- فالح جاسم الخفاجي (فاطمة)، العلاقات السياسية المصرية – التونسية (1956–1970)، أطروحة من أجل نيل شهادة الدكتوراه (2016)،جامعة ذي قار،العراق.

- النجار(حسن)، حركة "الإتّحاد و التّرقّي " و رئيسهاشمس الدّين العجيمي(1949)، بحث لنيل شهادة الماجستير في التّاريخ المعاصر،كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية، تونس 2014.

الموسوعات والقواميس:

- الفراهيدي (الخليل بن أحمد)، كتاب العين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت 2003، الجزء 1، ص. 419.
- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة 1984، المجلد الثاني.
- معجم تحليل الخطاب، إشرف باتريك شارودو و دومينيك منغنو، ترجمة عبد القادر المهيري و حمادي صمود، المركز الوطني للترجمة، تونس 2007.
- مانغونو(دومينيك)، *المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب*، ترجمة محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، سلسلة منشورات الإختلاف، الجزائر 2008.
- معجم المعاني، https://www.almaany.com
- الموسوعة الفلسفيّة العربيّة، معهد الإنماء العربي، بيروت 1986 ، الجزء الأوّل (الإصطلاحت و المفاهيم).

المواقع الالكترونية:

- الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، موقع الأمم المتّحدة، https://www.un.org/ar/universal-declaration-human-rights/index.html
- مصابيح (محمد)، مفهوم النص و الخطاب، موقع ناشري، تاريخ النشر: 06/ 02/ 2009، تاريخ التصفح: 18/ 07/ 2020، https://www.nashiri.net/articles/literature-and-art/4022-v15-4022.html

ثانيا: الأجنبية

المصادر :

- Ladgham (Bahi), **correspondances. Les années décisives:1952-1955**, Tunis, Cérès Productions, 1990.
- Mendes France (Œuvres complètes, III). ***Gouverner, c'est choisir***. Paris Gallimard.
- République Française, *Constitution de la Ve République,* Préambule de la constitution du 27 octobre 1946,juillet 2015.

المراجع :

- Harris Zellig S , Analyse du discours, Traduit par Dubois -Charlier Françoise , *In* Langage, N 13, Paris 1969. pp .8,9.